د. أحمد زلـط

أصابع متوحشة

قـصـص قـصـيـرة

دار هبة النيل للنشر والتوزيع
٤٢ أ شارع جول جمال ـ المهندسين
ت : ٣٠٣٦٣٠١
الطبعة الأولى
القاهرة ٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه إلى القارئ الكريم:

كل أسماء الشخصيات والأماكن الواردة في مجموعة قصص "أصابع متوحشة!" هي من خيال الكاتب وليس لها علاقة مباشرة بشخصية واقعية أو اعتبارية، شأنها شأن أفكار المجموعة المشار إليها، فهي أيضا من ذهن الكاتب وخياله ، وإذا وجد التباس ما ، فإن ذلك محض مصادفة مع عوالم الواقعية في الحياة.

رسالة... وإهداء

إلى أطفال المقاومة فـــى الأرض الفلســطينية العربية المحتلة:

يا من تنشـــــدون (المـــوت / الشــهادة)

وتكتبـــون (بـــــالحجر / الــــــــدم)

الوعـــــــــي أنّا

{ خير أمة أخرجـت للناس }

المؤلف

مائدة لكائنات البَر!

□□ تحرك طابور طويل من السيارات قاصداً صحراء شرق العاصمة، بدأ موكب السيارات من كل فج ومخرج، من محاور ميدان ديوان المحافظة انطلقت طليعة الركب الطويل وقت الظهيرة، كانت المناسبة توقيع عقد بيع مشروع ثروة حجرية خاسرة إلى شركة توظيف أموال كبرى، تنوعت أحجام وأنواع سيارات

الطابور اكتظت المقـــاعد بحضـــور المناســـبة، كنـــت محشوراً فى عربة المستشار الهندسى للمحافظة، جئـــت مدعواً لأسجل بالقلم والصورة حفل توقيع عقـــد البيـــع المنتظر .. شردت للحظة أحلم بالحصول على اعـــلان تسجيلى من الشركة الفائزة بالعقد، لاضير، سيســـاعدنى فى ذلك صديقى المستشار...، السيارات تثير بأبواقـــها وعوادمها ضوضاء التلوث، قطار الســـيارات الطويـــل يغطى حارات الطريق لمسافة ميل ونصف الميل تقريباً، لاح فى الأفق مكان الوصول من لافتات الترحيب لا من علامات المرور المُرشدة .. بدأ قطار الســـيارات فـــى المعاناة، كان علينا أن نتوغل فى قلب الصحراء ثلاثـــة أميال أخرى، حسناً، تراءت لنـــا البقعـــة الصحراويـــة المملوءة بكنوز خبئية من المواد الحجرية.

توزع قطار السيارات حول سرادق ضخم جـــداً يتفق والحضور، فالحضور هنا كثر ... حصرهم لايقـــل عن بضعة آلاف، فتشكلت لوحة منهم أشـــبه بخـــروج جماهير مزدحمة أعقاب مباراة مقامة فى أستاد كـــروى

.. شمس الصحراء تفضح المعالم البارزة هنا، اللافتات الألوان البراقة التى تكسو السرادق الضخم جداً تبدو فى الصدارة، أما الكسارات والروافع والناقلات الضخمة فتلى ذلك ...كانت بانوراما السيارات والبشر أشبه بقطع أحجار متحركة وثابتة تعكس اللوحة الكلية للمكان.

فى عجالة تم توقيع العقد، لم تسمع أصداء التهانى إلا من حاشية رأس الادارة المحلية ورئيس مجلس إدارة الشركة الفائزة، بدأت الحشود تتجه إلى السرادق الضخم جداً، كنت مهموماً ببرنامج الحفل داخله .. قلت لصديقى المستشار الهندسى مشيراً إلى السرادق

إنه أكبر مخيم فى العالم..

رد فى غيظ مكتوم:

اللهم إنى صائم.. ترف.سخف.. اسـ ...

وعاد من حيث أتى بعدما تأكد من عودتى مع نظراء لى يتلهفون التسويق الإعلامى للاحتفال .

●● فى غير ترتيب جلس بضعة مئـات أو الاف حول المائدة المستطيلة داخل السرادق .. بقيت منصـة المائدة خالية لدقائق ثم شغلت بجموع كثر من القيـادات، الصورة تبدو قاتمة، أختزل البرنامج في فقرة واحدة هي الاجهاز على طعام المائدة مثلما أُجهِز علـى مكونـات المشروع الضخم .. رُفعت الأغطية، ها هـى أطعمـة يعرفها المدعوون وأخرى لأول مرة تقع أعينهم عليـها، فى تلك اللحظة كانت ابتسامة رئيس الشركة المستضيفة الفائزة تنبيك عن نقطة ضوئيـة تعلـو لحيتـه الكثـة السمراء.. على استحياء أمسكت بمشـروب أعرفـه.. أتناول به أقراص دواء داء السكري ضغـط الـدم ... وكذلك فرغت أسجل أختزال البرنامج الدائر.. الجمـوع تزدرد الطعام فى صمت وتوجس، كأنهم فى مأدبة طعام عزاء ... عشرات الأصناف باردة وحارة، ومثلها مـن الحلوى والمشروبات على مقربة مني، لمحت ثلة تـأكل فى نهم وتسرع .. حدقت ... كانت كائنـات متنوعـة الجنس والنوع .. احتشدت كلاب البر فى بضعة مئـات

أو آلاف متراصة فى غير نباح، منكسة الأذناب، تنوعت أحجامها وألوانها وفصائلها بين البلدية والضالة والذئبية، شكل أحتشادها منظرا غريبا لتطويق المكان من كل الجهات،أفزعنى الاحتشاد الصامت، لا عواء ولا نباح و ....

لا عراك، رأيت حفنة منهم تلعق بملابس بعض عمال المشرع الذين سيخسرون وظائفهم فى أعقاب الحفل و البعض الأخر يتحفز ويترقب الأمر، الفزع يزداد، قررت سؤال الأستاذ محمد صبحي عبد الدايم الصحفى المرافق لى :

من أين جاءت جموع الكلاب وما سر احتشادها مع جمهور الحفل؟

رد فى سخرية تغلفها بسمة تعلو لحيته البيضاء :

جاءوا مثلما جئنا.. أخبرني المشرف على موائد الحفل أن وفود الكلاب بدأت فى الوصول من ليلة أمس، كانت طلائعها الأولى حولنا مع ظهور روائح الذبح والطهى وإعداد الموائد و ... "والله خير الماكرين".

حاولت مقاطعة زميلى لم أقدر، قلنا فى توقيت متامن:

لعلهم ينتظرون خلف مائدة السرادق الضخم من جنس البشر ثم ... وقبل أن نكمل ما توقعناه رأينا جماعات كلاب البر ترفع أذنابها وتخرج ألسنتها متجهة إلى موائد السرادق الضخم جداً، كانت تعدو لاهية كجيش ينتقم .. راحت تلتهم ما لم تستطع ألسنة أخرى أن تتذوقه، لقد طاب الطعام لكلاب البر .. الجوعي يجهزون على كل ما فوق الموائد مكرت أنواع مما خلق الله من صنوف فى الوقت الذى لم يعرف فيه المدعوون بعد، سر مرارة الطعام فى الحلوق أو ناره فى الامعاء ؟!... عرفت فقط مغزى مقولة المستشار الهندسى للمحافظ لى وهو يغادر المكان، طالت هجمتهم على صنوف الطعام أشعلت سيجارتى .. عدت ألا حقهم فى دهشة، قال حاديهم فى قحة وأشارة رامزة:

ضعوا الأصحاء فى أكياسكم، ألقوها مُغلقة بين أرجلكم

تذكرت السبب الأساسى لمجيئى، خرجت من السرادق الضخم جداً أتابع وزملائى قسمة التوزيع

الإعلانى المنتظر .. وفى أقل من ثلث ساعة كنت مـــع زملائى عند عربة العودة، جذبنى أحد الذين دققت النظر فيهم ممن كانوا يهجمون على الطعام قبل قليل ... قـــال فى غير تمهيد لحوار:

-إنها مأدبة السنة، بل القرن .. المفروض أن تكتَـــب لهم بحيث تُوزَع على أسابيع السنة كلها ...

رفعت صوتى أستوقفه الثرثرة ولسانى يقول فـــى لهجة آمرة :

– خذ أكياسك وادخرها كما تريد .. أغرب عن وجهى أنت وامثالك..

تفحصنى فى وقاحة يكاد يفترسنى، أغلـــق بـــاب السيارة وهو يثرثر:

عَبَط .. وفرت لنا كيساً مطلـــوءاً بلحـــم الديكـــة الرومية، كنا نود مساومتك عليه، عبيط لم يأكل، ولـــــن تكتب ..هـــ... ها.. هاء . ..

●● تحركت سيارة رحلة العودة، خرس لسانى، وبدأت أتذكر المأدبة الحقيقية التى كنت حضرتها عصر يوم الجمعة الماضى، كان المكان أكثر رقة وحنواً من هنا.. هناك بالقرب من البحيرة والبحر الواسع فى أطراف شرق دلتا النهر.. لن أنس يوم أن استضافنا نائب برلمانى معروف، وسعته قلوب أكبر المدن اتساعاً ومساحة.. كانت المدينة درة الزراعات الواسعة والحدائق العتيقة وجداول الملاحات المتاخمة للصحراء .. فى ملعب كرة القدم، بل فى حيزه المساحى جميعا، اصطفت مائدة ليست كالمأدبة اياها.. من المرمى إلى المرمى، تجاورت الصفوف طول الملعب وعرضه مسار ركب المأدبة على الاقدام ... أتى الركب من رافدين : جموع المصلين فى مسجد المدينة الكبير، ومن حديقة وقصر النائب .. أجتمع قرابة ألف وخمسمائة مدعو ... على مائدة النائب الفائز فى الدور البرلمانية

الأخيرة .. مازلت أتذكر لكزة قاسية من مدير تحريـــر الصحيفة المحلية وهو يسألني وقتذاك:

- كيف يسع الملعب هؤلاء المدعوون، .. عرفناه يسع نيفاً وعشرين؟ ضحكت .. ضحكة صافيـــة ورددت ردود الفلاسفة :

- الكرم الحقيقي مشاعر حب لا يقاس عليها المكـــان والزمان والاشياء.. إنك كمن تقيس بســـؤالك حجـم الماء باليابسة أو الجبال بالجليد.. الدجاجة تسع تحـت جناحيها أفراخها بينما الزوجة الثانية لا تسع صدرها، بل مجرد رؤية أبناء الزوجـــة الأولـــى..... حـــاول مقاطعتي يستدرك ويستفهم، لم نتمكن معاً . فقد وصل النائب وحاشيته يسبق ركبه الزغـــاريد، بعـد قليـل وتأهب الجميع للطعام واستهلوا بفاتحة كل خير بســم الله ...

●● البِشر يملأ وجوه المدعوون .. استشـــعرت حلاوة مذاق الأطعمة وعرفتها جميعاً، مثلما عرفها كـــل

من انتظمته المائدة .. خيراً اللهم أجعله عامراً.. دعـــاء يسبق البسمات الراضية من الأعماق .. حاولت التقـــاط صورة فوتوغرافية للمأدبة، لقد فتحت شـــهيتى للكتابــة هنا..حسناً فى دقائق أعد لى الشـــباب مـــن متطوعـــى المأدبة مكاناً عاليا خلف المرمى.. أمسكوا بالسلم الـــذى ساعدنى فى التقاط الصور الرائعة التى تعكـــس فـــرح المأدبة البهيج .. عكر الصفو لحظتئذ رؤيتـــى خـــلال العدسة لثلة متجاورة على جانب من المائدة.. رحمـــاك ياربى .. هى.. هى الثلة..هم .. هم أصحاب الســـحنات المتطفلة ... بأكياســـهم الســـوداء وقواطـــع أســـنانهم الصفراء....

اقتربت رحلة العودة من نهايتها ولم تزل فى قلبى غصة من ذلك المتطفل الوقح وأمثاله .. لم أخرج عـــن صمتى إلا وأنا أستعيد وافسر ما قال به أحدهـــم وأنـــا أغادر مأدبة الملعب أيضاً:

– المفروض أن تُمد مأدبة اليوم فى حـــيز أقـــل مـــن ملعب كرة القدم مثل ملعب الكرة الطائرة ... فـــالعدد فى مساحته الضيقة أقل، أما جمع مـــا لـــذ وطـــاب فسيكون لأمثالى أكثر !!

خرجت عن صمتى ولسانى يلهج : مرحى لأهـــل البر..

وويل للناهبين بل ويـــل للمتطفليـــن، وأه يـــا كائنات البر.

* * *

شهيق وزفير

□□ ضج من كــل زبائنـــه ، ركــاب الليــل والنهار، الكبار والصغار منهم، سئم دورات الصعـــود والهبوط المتكررة طوال الوقت .. بات يئن فى غـــدوه ورواحه من السلوكيات والأحمال ، بـــل مـــن اللعــب

والعبث، من فتح أو اغلاق بلا رحمـــة ! .. أصيــب كالبشر.. ضغط طاقته يرتفع تارة وينخفــض أخــرى فيعجز عن العمل ، وتتوالى الأعطال ، ومع الأعطــال يشعر زبائنه بمأساة من بداخله لا مأساته هو!.

كان مصعد المبنى الذى أسكن فى الطابق الثالث منه ، يعد أغرب ناقل سبرت أغواره ولامست أحواله، هو كهل متهالك، عُرف عنه الأعطال المكرورة والبطء فى النقل .. كان له صوت أشبه بدوامة ماء عتية تشفط غريقاً ، أو أنات ساقية لا تعرف للصيانة سبيلاً، كنــت أراقبه فى التلكؤ والعزف المتقطع يعانى ويئن...، أمــا من حوله فلا حول لهم ولا قوة إلا بالله، ثــم اســتخدام البديل .. قدر لى خلال اقامتى واســـفارى أو عملــى التعرف على أنواع كثر من المصاعد ، القديم والجديد، الواسع والضيق، الرقمى، والمكيف الـــهواء، المظلــم والمتهالك كصاحبنا المريض.. فالمصعد المتمايز يعنــى البشر المتميزون والمكان أيضاً.

قلت لعامل المصعد الذى هو الحارس ونـــائب المالك فى تحصيل الايجارات :

- **المصعد يصرخ** ، نريد معه حلاً وعلاجا.. ارحموا الضعفاء والبدناء والكهول !!!

رد العامل " الكوكتيل" فى اجابة مُصطنعة غــير شافية كالطعام الجاهز:

- سأكلم المالك.. سأكلم المالك ...... و........

●● كنت غير محظوظاً مع المصعد فلم ينقلنــى إلا فى أحوال موسمية نادرة ، ضج أغلب ركابه مـــن تكرار أعطاله.. ذات مرة حملنى بعد منتصــف الليــل إلى حيث أقيم ، ظل فى صعود وهبوط أليــــن لمــدة ليست قصيرة، تصبب عرقى ، الظلمة تلفنى والخــوف من نفاد الأوكسجين تفزعنى.. باغتنى صوت ممـــزوج بالصدى كأنه أت من حنجرة غـــير بشـــرية ، بـــدأت أسترق السمع والمحاورة:

- لا تخف أيها الراكب الطيـــب العـــاقل .. أطمئـــن سأقف بك بعد سماعك لي، ثم بلغ المالك لا العـــامل

برغبتي في التقاعد .. ضقت ذرعاً بكل شئ.. قل له أن يفك قيودي في بئر هبوطي أو غرفة صعـــودي سئمت الحياة .. تقطعت أوصالي .. هيا لمسكنك ولنا لقاء يتجدد في نفس الموعد.

●● تكومت في غرفة نومي..تركت الضـــوء الخافت أنيساً لي، حملقت في السقف ، أديــر معركــة صامته خيوطها تساؤلات تبحث عن أجوبة مـن أرض الواقع... أيتكلم المصعد حقاً؟!، بلـــي، لا ومليــار لا!! أغوص في شرود عاقل حيث يتثبت إيماني أكثر بوحي القرأن المنزل.. ويتقاطع خيط عجيب حـــول الحديــد المنزل أيضاً ، التأمل من أعلى إلى أســـفل والعكــس يحتويني حتى مسني شطط أقرب إلى الهوس والجنــون .. حاولت النوم غالبني الموقف يطاردني مرة أخرى ، تساءلت في كامل يقظتي أيضرب لي المصعد ايضــــاً موعداً!... تركت غرفة نومي بدأت الوضوء فقد حـــان توقيت صلاة الفجر.

في الموعد المضروب المزعـــوم توقـــف، بـــي المصعد بين الطابقين الثالث والرابع، اسمعني صوتـــه المتحشرج في حوار من طـــرف واحـــد . لا أعـــرف مصدره:

"بلغ رسالتي الأخيرة قبل أن أســـقط فـــي بـــئر الهبوط ، على الراكبين والراكبات تعديـــل ســـلوكياتهم معي ومع من يخلفني، ليكف الجميع عن القاء النفايـــات والتبول داخلي .. وليكفوا عـــن العبـــث بأعضـــائي ، وتلويث صندوقي بالقول والفعل والكتابة ، هـــل مـــن رادع للملوثات والحماقات التي ترتكب في صندوقـــي تحت جنح الظلمة ؟ تخلصوا من عمدية تعطيلي بفتـــح بابي .. حاسبوا كل أناني من صغير وكبير وكفى ..... ثم هبط المصعد بي أمام مسكني في صمت ، وأنا أردد بأعلى صوت

... لديه الحق... كل الحق

* * *

ولد... بنت... بنت ولد

□□ التقينا مصادفة أمام باب المصعد ، عرفته جيداً ، هو أحد عمال المصاعد ، تبادلنـــا الأحضـــان نختزل أشواق سنوات بعيدة مضـــت، شـــردت قليـــلا أحملق فى سحنته ، مازلت أتذكـــر أســـارير وجهـــه

المطمئن الباسم.. فى أرضنا الواسـعة تصادقنا فى الماضى حيث كان يعمل ككل البسطاء فى القرية ، قريتى التى ضقت بها، كانت أحلامى مشدودة إلى المدينة تحت تأثير ضاغط من زوجتى -ابنة العمدة الذى كان .. حملقت فى مظهره ثانية ، ألفيته بالزى الموحد للعاملين بالمكان، إنه أفخم مستشفى توليدى خاص بالمدينة.. أطلت التحديق والشرود ، فالمصعد لا يزال يجمعنى معه فى صعود وهبوط مستمرين ، باغتنى بضحكته المألوفة وأتبعها قائلاً ... واحد شاى مخصوص لبلد ياتى وصلّحه...

● **قبل أن يأتى الشاى بادرنى يتساءل :**

- ياترى سعادتك هنا فى زيارة أصحابك .. دكاترة أم مستثمرين؟ أجبته فى سرعة:

- لا.. ياأخى لا.. زوجتى مقيمة فى الجناح المخصوص .. جاءت هنا لتلد تحت اشراف طبى.. وفجأة،

انصرف يغمغم ثم عاد يحمل الشاى يعاتبنى قائلاً:

- عموماً ألف سلامة لحرمكم المصون ياباشـــا.. ان شاء الله نفرح كلنا بالباشا الصغير،

..... استدعينا ســوالف الذكريــات ، وكــانت ضحكاتنا تترد فى المكان وتتزامن مع أخر رشفة شاى، أستمرت البسمات البريئة فى تلقائية عجيبة ، أخرج من جيبه أوراق اللعب ، ألقى بها على الطاولة كمن ينجــم لى ... وفى فرح طفولى قال:

ولد. باشا. بنت . باشا.. ولد .. بنت باشا!!...

●● هممت أودعه.. أطال النظر فى العينيــــن يطرح أسئلة حيرى تبحث عن أجوبة .. شكرت حفاوته بى، ألح علىَّ الجلوس ثانية: قلت له أنسيتنى مــهمتى.. أجابنى لفوره:

أجلس ولو لدقيقة ... وأمطرنى لسانه وهو يئـــن ويصرخ:

- أحوالى هنا أرق وعذاب .. لا يغرنك راتبى فالناس يحسدونني

لأنى أعمل فى فندق علاجــى ســبعة نجــوم.. الفنادق الكبرى لا تزيد عن خمسة المستشفى هنا يزيــد

عنا بنجمتين ، هو فندق علاجـــى، غرفــه، أجنحتــه، زبائنه، قد بُني للمترفين فحسب، الماضى فى أرضنـــا الواسعة ليس له وجود.. الكل هنا ناعم وماكر وبـــراق .. الناس والأشياء..... والبيبسي والشيبسي .. البيـــتزا والكنتاكى و..و.. كل ما هـــو حولـــى يعـــاندنى، بـــل يكوينى، هنا ياباشا شياطين من أنس هم الحواه الجدد .. لم أستطع إيقافه عن البوح.. قالها وانخرط يجهش فـــى بكاء.. أى توليد عصرى يقام فى مستشفيات فندقيـــة؟ عدوى محمومة بين العصريات ليس إلا .. توقف عـــن الكلام، بقيت رأسى تتأرجح فى تأمل نجواه ....

●● فجأة ، زمجرت الات التنبيـــه الصوتيـــة المنبعثة من جنبات الاروقة الرخامية للمبنى، المديـــر الادارى يصيح فى ناقلات الصوت ، يستدعى صاحبنـــا كمن يستدعى إحتياطى جيش لمعركة، فالمصعد متوقف والناس أمامه وقوف بالطوابير .. المدير يزداد انفعـــالاً ويقرر احالة صاحبنا للتحقيق .. تركته أحملق ورحـــت فى الطوابير مع ألوان الطيف التى تشكل باقات الورود

وعلب الحلوى فى أياديــهم، بينمــا صاحبنــا لا يعبــأ مواجهة المدير ، تركته واتجهت إلى الجناح الخـــاص الذى تقيم به زوجتى فى دهشة عاصفة تلف المكان.

●● حين دخلت على زوجتى كانت ثلة تقـــوم على خدمتها وهى فى وضع (اليوجا) واحداهن تعنـــى بنعومة الوجه والأيدى، وأخرى تقــوم علــى تــهذيب الأظافر و.... بعدما أنصرفوا اظهرت عدم اكتراثي بما أرى مثلما لم تكثرت بما يجرى .. ناولتـــها مجــلات الأزياء والديكور ، وكتباً تختار من بينها اسماً للمولــود .. قالت فى دل واستعلاء:

– لقد تأخرت ونسيت (الكورن فلكس) و (الجريــــب فروت) و... قاطعتها متفائلاً:

– جئتك بانواع من فاكهة طازجة لعلها أكثر فائدة

ردت فى اقتضاب:

الجاهز العصرى أسرع.

لم أشأ مواصلة الجدل .. باغتـــها أســأل عــن الحادث السعيد ، قالت فى تكلف واسترخاء:

- أه ... التقارير المكتوبة والمصورة بين الأطباء في الجناح تقول:

عملية توليدى قد تجرى خلال الخمسين ساعة المقبلة حسنا أراك فى الغد.

● فى داخل المصعد التقيت مرة ثانية ببلد يلتى كان حزينا يتفحص أوراق أحالته للتحقيق من جراء ترك المصعد.. توهمت ذلك ، لكنه خيب ظنى وقال فى صوت واثق محولا ظنونى:

- يا باشا .. أرجوك أن تتذكر معى ولادات الماضى التى عرفناها.. زلزلنى بالتنقيب عن وقائع أشبه بالحكايات الخرافية ، صمت معه، أطلنا النداء الصموت نستدعي الماضى الجميل ، لم نفق إلا والمصعد يهبط بنا إلى المدخل الواسع للمستشفى بالطابق الأرضى، ثانية يعود التذكار .. الطابق الأرضى يذكرنى بأرضنا الواسعة هناك فى القرية .. طفق من جديد يذكرنى بأم إبراهيم البدرى التى شهدت معه يومها لحظات ولادتها وهى تعمل وسط

الماء الطين وشتلات حقل الأرز بكل الحيوية.. لـن يغيب مشهد الولادة عن الخيال.. سقوط الوليد فـى قلب الماء والطين والتقاط أمه القوية له والحنو عليه تابعتها إلى رأس الحقل حيث أستقرت ترضعه تحت شجرة التوت، فكت (صُرة) الغذاء ولفت بـالمنديل القماش الواسع جسد الطفل، أنخلعت قلـوب أنفـار الحقل معنا وهى تغادر به المكان إلى بيوت القريـة فتقول للملاحظ :

- ربنا قوانى وساعدنى..أُجرتى زكاة عـن صحتـى وعافيتى.

شهقت يومها... وأنقدتها أجازة أسبوع كامل..

أنحنى لى بلدياتى إلـى جـانب مـن مدخـل المستشفى يريد مواصلة الحديث.. حاولت أيقافه، لـم أقدر ، قال فى زهو:

- أتتذكر معى كواكب غيرها من نساء القرية أتذكـر الحوامل اللواتى كن يعملن ويتحركن لآخر لحظة..

أستمر فى التساؤل والإجابـــة ، عنـدك، ابنـــة درويش أبو سويلم التى كانت تضرب بالفأس مربعـــات ومستطيلات أرضكم أعقاب كل حصاد، وحين باغتـــها المخاض أستمرت يومـــها صـــابرة تســتأصل بقايـــا محصول سبق وتمهد بفأسها التربة لمحصول جديـــد.. وحين سقط وليدها على مشهد من الجميع وتصـــايحوا فى نداء رائع إبتسم وابتسمت معــــه وأدرت ظـــهرى للبوابة أترحم لذكريات لن تعود.

●● فى اليوم التالى بُلغت أننى رزقت مولوداً ، لكنه وُلِدَ مبتسراً فنقل إلى الحاضنة الإصطناعيـــة،.... وأمامها تسمرت أتفحص حُلمـــى النـــاقص التكويـــن ، حلمى القابع فى الصندوق بين المحاليل و (الأكســجين) يصارع البقاء.. طال المشهد لساعات طوال ، بل دخل الليل بأكمله، لا جديد .. نظرت إلى الحقيبة التـــى لـــم تذهب إلى جناح زوجتى وكأنى أسأل عن مدى حاجتـها الأن (للجريب فروت) و(الكورن فلكس) مع (اليوجـــا)

ونعومة الأيدى ونوم الضحى و.. فجأة يخرجنى عـــن شرودى رجل حسابات المستشفى بفاتورتين:

أولاهما للاقامة والتوليد، أمـــا الثانيـــة فكـــانت مفرداتها تقول: بيان مصروفات الحاضنة الإصطناعيـة ومصروفات عربة نقل طفلى الميت المتدثر فى أكفانـــه ، سددت المطلوب ، قررت أن أصطحب معنـــا إلـــى مدافن الأسرة هناك، عامل المصعـــد، حيـــث أرضنـــا الواسعة التى تكسوها الشموس الكواكب.

* * *

مقاس شاذ ؟!

□□ دعا صاحب الشرطة قواده إلى اجتماع عـــاجل، فى المساء أحتشد كبار العسعس من مستشارين وقـــادة أفرع داخل قاعة الاجتماع الكـــبرى، تـــأخر وصـــول صاحب الشرطة، اتجه إلى مقر مكتبة قائد البصـــاصين

يستنفره الحضور، بعد دقائق كان صاحب الشرطة فـــى طريقه لرئاسة الاجتماع، تفرس الحضور جيداً دقـــائق هيئة قائدهم، لاحظوه كأنما يلقونه أول مرة قـــد أوتـــى بسطة فى الجسم، فارع الطول، سمين القوام، عريـــض المنكبين، يمشى على ساقين ملفوفتين كعمودى خرسانة، يدق الأرض بقدمين غليظتين، فكان دبيبـــهما وحدهمـــا فوق الأرض يُعلن عن قدوم شخصيته القوية !

● غُلقت أبواب القاعة بعد تأمين مداخلـــها ومخارجـــها ونوافذها، دبت فـــى لاقطـــات الصـــور، ومســـجلات الأصوات الحياة، انتظم الجمع الحاشد، علـــى كرســـى المنصة المميز كان صاحب الشرطة بجسمه الضخـــم، ورأسه الصغيرة منحولة الشعر قد بدأ يعلن فى الحضور جدول الأعمال فى صوت آمر:

- انتبهوا، اجتماعنا اليوم غـــير عـــادى، موضوعنـــا الوحيد، حشد كل قواكم لجمع قطع الأحذية الرجـــالى من مقاس (٥٠) .. أكرر من مقـــاس (٥٠) المهمـــة

ليست سهلة .. أمامكم الإحصائيــات الرقميــة، زوج واحد فى المليون ! .. فنسبة من يصنعون أو يملكـون المقاس ضئيلة .. معكم أربعة وعشرين ساعة كمـــدة كافية لملاحقة المقاس أينما وجد أو أرتحل به صاحبه أو بائعه ! .. لا نريد أى شيئ شاذ فى طـــول بلدنــا وعرضها.

عاون أمير الجيوش صاحب الشرطة فى مهمتــه، فقدم الطوفات المروحية والقطع البحريـــة، حوصــرت مراسى الشواطئ والموانى، أما فى داخل البـــلاد، فقــد شُغلت أفرع الشرطة بتنفيــذ المهمـــة العاجلــة، رآهــا المراقبون عملية صعبة ودقيقة، كان تنفيذها فى زمـــن قياسى يدل على قدرة صاحب الشرطة ورجاله، فى أقـل من عشرين ساعة ثم مطابقة الإحصائيات مع مـــا تــم جمعه من نعال قد وضعت فى مخـــازن الشــرطة، إلا زوجين أثنين فحسب.!

صرخ صاحب الشرطة فى قواده عبر الـــهواتف اللاسلكية، لم يبق بين أيديكم إلا ســـــاعات محـــدودة .. ابحثوا عن الزوجين بأى وسيلة، هذا تقـــاعس، معكـــم أجهزة الدولة تعاونكم ولا تزال نسبة تنفيذكـــــم ٩٩,٩% أريدها ١٠٠% .. انتهى .. أفد.

راجع القواد مخططات التنفيذ، وجدوا أن هنـــاك سفينة ناقلة للركاب تستعد للخروج من المياه الإقليميــــة إلى المياه الدولية، خرجت فى عرض البحـــر اللنشـــات والقطع البحرية، فوق ظهر السفينة كان أحـــد الركـــاب بغيتهم و...

على جانب آخر، فى مكتب صـــاحب الشـــرطة، كـــان الضابط الفنى الشاب يتلقى بلاغات العملية الكـــبرى أولاً بأول، أكتظت الملفات بالمعلومات والنتائج، **بينما تحولت بلاغات النهب والاختطاف والاغتصـــاب والقتـــــل و**

... إلى جثث هامدة فى أعداد متزايدة تنتظر البت، بل بقيت كسلحفاة عجوز!

هم الضابط الفنى يُنظم ملفات العرض على صاحب الشرطة كتب عليها جميعاً عبارة تقول:

عاجل جداً .. ملفات عملية جمع المقاس الشاذ..

اقتادوه من فوق ظهر السفينة إلى ديوان صاحب الشرطة، قبل انقضاء مهلة الساعات القليلة، قطعوا أحلام سفره، تقدم إلى مكتب صاحب الشرطة قائد العملية يقول:

- هذا الراكب كان مغادراً البلاد .. اعترضنا السفينة وأحضرناه بالمقاس المطلوب ؟؟ تبسم له وقال وهو يدير رأسه الصغير فى هدوء ورضا:

- أطلقوا سراحه ...

استجمع الضابط قواه وهو يؤدى تحية الانصراف، المهمة انتهت .. زوج النعال الأخير فى قدم

معاليك .. البلد كلها خالية مـن المقـاس (٥٠) .. كـل أنواعه وألوانه تحت تصرف سعادتك...

ضحك صاحب الشرطة وقال لمدير مكتبه:

بلغ المدير المالى مكافأة شهر للقواد والجنـود، ثـم أنقل عنى لمدير العلاقات البيان التالى:

"أجهزة الشرطة تنجح فى أقل من أربعـة وعشـرين ساعة فى جمع كل أنواع الأحذية الشـاذة مـن أقـدام المواطنين والمنتجين والمروجين، بنسبة تنفيذ بلغـت مائة بالمائة."

وبعد أن أدلى صاحب الشرطة بـدلاء العمليـة الكبرى .. راح يدق أرض ساحة غرفة مكتبه الواسـعة بخطوات قدميه الغليظتين فى زهو وخيلاء.

* * *

قمر الزمان يتماوت !

□□ فى تلك الساعة من ليلة شتوية غير مقمرة، أفزعنى طرق موصول يدق بابى، هرولت إلى الباب لأجد أحدهم يرتعد وقد بلله المطر، هم بالدخول دون استئذان، لم تمض لحظة إلا وأشعرته بدفء المشاعر والمكان : قدم لى نفسه فقال:

- -أنا زميل جديد، قادم اليوم من جنوب حضارة النهر إلى جنوب حضارة الصحراء، أقمت منذ وصلت المدينة فى غرفة مشتركة مع قريب لى، وهى قريبة من الفندق ... قاطعته فى أدب أتساءل :

- من أنت ؟ : أأنت فى إعارة تعاقدية، أم ماذا ؟!

أجاب فى حدة لا تنم عن ثقته، بينما عينيه تدوران فى المكان تحصى مفرداته قال:

- أنا الدكتور **قمر زاهد المحاقى**، أستاذ الكيمياء الحيوية بفرع أقدم الجامعات بالجنوب، لكننى سأصل لسن المعاش بعد سبعة أعوام ... ليتهم يسنون قوانين جديدة للمعاش تصل به إلى السبعين !... قاطعت استرساله مرة أخرى، فأوجز الطلب وقال فى جرأة:

مد لى يد العون فأنا محتاج ولم يصرف راتبى بعد، أحس بالعطش الشديد والجوع الأشد، بل البرد

القارس و ... فهمت مطالبة قمت مـــن فــورى أســد حاجاته، أشبعها وأنصرف فى صمت!

بينما كانت دقات ساعة الحــائط تعلــن الثانيــة عشرة، راح رنين الهاتف يزغرد دون توقف، تزامنــت الدقات مع الرنين فى آن عجيب يعلن إيقاع الحياة مـــع وقع رنين ثالث لجرس بابى، أمهلت من بهاتفي لحظــة انتظار، وعندما فتحت الباب وجدت أمـــامى الضيــف الذى غادرنى قبل قليل .. لم أكن أعرفه قبـــل الليلــة، جرؤ ثانية وقال فى استعطاف:

- أكمل حسناتك .. أعطنى بطانية ووســـادة ومائــة درهم .. عفواً هات معك زجاجة ميــــاه .. عــدت أعطيه ما طلب، ولى ظهره يغمغم فى اقتضاب:

- زميل ابن بلد وأصيل يا أ ... بادرنى محدثى على الهاتف وقد طال انتظاره:

- انتبه ولا تقاطعنى ... هنـــــاك أحــد الأشــخاص المقيمين يحتال فى المدينة منذ وصوله، قد يصلـــك

فى أى لحظة، سلوكه يفصح عنه وقد باتت أفعالـــه تفضحنا فى الغربة، محتال كالثعلب، مجرب، يجيـد حيل التطفل فى فنون أغرب مما تناقلته أمهات كتب الطبائع .. لم نشأ إخبارك بمخازيه لأنــك اخــترت إقامتك الفندقية لتنجز بحوثك فى هـــدوء .. العــام الجامعى يكاد ينقضى ولا يزال يلف ويدور ويروغ، ضج الناس من تسوله بكلمات التوســل : زميلكــم محتاجكم .. أغيثونى .. بلدياتكم ينتظـــر صــرف رواتبه التى لم تصرف بعد !! .. خذ الحيطة قبـــل أن يصلك .. لتسجل فى ذاكرتك ما حصدنـــاه فـــى سلاسل طبعه اللئيم .. مدخله للضحية بعد الســؤال عنها التوسل بالعطش والجوع والبرد وقلة المـــال بين يديه .. يتعهد ضحاياه المساء تلو الآخر، يتغذى فى نهاره بالخبز الذى يجمعه مـــن فـــاقد المخـــبز المجاور، فيغمس الخبز (بمش البلاص) الذى حملــه

معه على متن أول رحلة جوية مجانية فى حياتـه .. يعيش حياة الكهوف منذ وصوله، فيخـاصم المـاء العذب الفرات ويقوم بعملية التقطير للماء الملحـى الأجاج، يشربه بعد معالجـة طويلـة .. قطـرة .. قطرة .. وبالمجان أيضاً يرتاد الأسواق يلتقط البقيـة من كل شئ .. استحضر معه علبة من عسل النحل القنائى باعها وسدد بالقيمة رسوم إقامتـه، زاحـم البسطاء فى شهر رمضان الماضى علـى موائـد الرحمن، جمع شَعْره تحت طاقيته كـى لا يذهـب للحلاق، لم يذهب مذ جاء المدينة لقصاب أو سـماك أو فاكهى أو وراق أو سقاء أو حائك وغـيرهم .. أكد لى أحد الصيارفة أنه يودع وبانتظـام، كـامل رواتبه غير منقوصة، لم يقـم بعمليـة سـحب أو تحويل واحدة قرابة العام! ... سئم من حوله مظهره الرث، تعالت رائحته تزكم الأنوف، أشاروا عليـه

بالاستحمام وإبدال زيه الشتوى بما يناسب قيظ الصيف، لم يفعل، قُدم له بضعة أثواب جديدة، كى يرتديها، قَبلها ولم يفعل أيضاً، تحول وجهه -ستراه حين يصلك- إلى أخاديد وحفر كشفت عن عظامه، يا لسوء طبعه ... ذبلت عيناه ودخلت به إلى دهاليز أو سراديب لا يستعذ بها سوى أستاذ فى شقاء الحرمان ! .. وفجأة دق جرس بابى .. أمهلت وأرحت محدثى لحظات، واستأذنته أفتح الباب .. كان الطارق موظف الفندق الذى أخبرنى فى عُجالة

- بلدياتكم الضيف الذى كان هنا قبل قليل، سقط فى إغماءة طويلة في بهو الفندق نقلناه إلى المستشفى، مطلوب تبرعكم مع كريم آخر بكليتين له ... و...

أوصدت الباب وهرولت لمحدثى أبادره المهاتفة وأقول:

- لتكف عن المخازى والوقائع التى أسمعتنى .. لـــم تعد هناك قيمـــــة لمحـــاذيرك .. لأن قمـــر زاهـــد المحاقى، يصارع الآن سكرات الموت فى مستشفى المدينة .. غاب نُذر محدثى، وتوقف صوتـــى مـــع انقطاع تيار الكهرباء، ساد الصمت والظلام وكانت نذر البرق والرعد تداهم عينى من خلـــف ســـتارة النافذة، زمجرت السماء عن سيل عـــرم، تكومـــت داخل سريرى تلاحقنى دمدمات الســـيل المنـــهمر، بينما نبضات ساعة الحائط قبالتى تعلن عن إيقاعـــها الممل، دخول صباح جديد.



نوافذ من أمن.. سدود من خوف؟!

□□ عقدت العزم على الوفاء بالوعد، لبيت دعوة مدير شبكة البرامج الثقافية بالإذاعة لأقوم بـــإعداد للبرنـــامج المشهور " مفكرون وعلماء " .. أعلنت حالة الطـــوارئ في بيتي، التصق عقلي وجسمي بأرفف مكتبتي، دققـــت التنقيب عن سير ونتاج أفذاذ الإنسانية، جـــاء الحصـــاد

طيباً ووافراً يسد احتياجات شبكة الإذاعة لربع عام على الأقل، شعرت بإثبات الذات مع أننى استبدلت عدسات نظارتى بعدسات أخرى أكثر سمكاً، لملمت أوراقى وشخصياتى وقدمتها للإذاعة فى رضا ولذة .. ما أحلى نوافذ الضوء الإشراق .. الأمن !

فى مبنى الإذاعة والتلفزة، أتممت إجراءات تسجيل حلقات البرنامج بصوتى، لم أجهد مهندس الأستوديو، أو مقدم البرنامج، أشعرتهما بصحة أدائى أننى إذاعى ضل طريقه إلى البريق الأكاديمى .. أودعت أوراق الحلقات التى سجلت بإدارة الحسابات كمستندات لصرف مكافأة الأعداد .. حسناً .. الأمور هكذا تعدو كأحلام سرعتها تقاس بسرعة مُرسلات الأقمار الصناعية.

مضى شهر، بل شهران إلى أن ها تفتني إدارة المتابعة بالشبكة الثقافية على عنوانى .. هنيأ لك إذاعة حلقاتك الرائعة ... فالأصداء بشأنها واسعة، لتحضر لتسلم الدكافأة، لقد أودعت أذون الصرف باسمك فى

نوافذ صرف الخزينة، تهللت أساريرى، المردود المللى يتآزر مع الأدبى ..شكرت ربى فى عقلى وقلبى وضميرى، ولم أنس مبادلة الشبكة الشكر والإطراء.

فى وفق ممزوج بالفرحة وضعت زوجتى الشاى على الطاولة وقبل أن تجلس قالت:

مبارك علينا .. رزق أولادنا..

من أسفل العدسات قالت العيون ووميضها يكاد يرفع النظارة جميعاً:

- الحمد لله .. كريم يا رب .. وكان الشيطان يلاحقنى، كأنما يعرقل الفرحة ويدعونى فى إلحاح غريب أن أستقل عربة أجرة خاصة أتوجه بها لمبنى الإذاعة والتلفزة .. آه من أجرة عربة مخصوص تنقلك من مدينتك إلى العاصمة لم أقدر على ملاحقة الشيطان، صارحت زوجى بما يدور فى خلدى قالت وهى تنهرنى:

- أصبر على رزقك، وإلا فكأنك يا أبو زيد ما (غزيت)..!!

وصل بى القطار المكيف إلى محطة العاصمة، توجهت إلى مبنى الإذاعة والتلفزة، كنت أمام نوافذ خزينة الصرف فى حوالى التاسعة صباحاً ولم تكن الخزينة قد فتحت نوافذها بعد، بعد قليل جاء الصيارفة .. أخذت مكانى أمام النافذة التى تحمل هذا العنوان : أذون صرف المتحدثون والمعدون وأساتذة الجامعات .. وقفت طوابير مزدحمة أمام النوافذ الأخرى، كنا أمام نافذتنا قلة من الطالبين، أعدادنا لا تكمل أصابع اليد.

فى فضول شيطانى راحت عدسات نظارتى السميكة تراقب ما يتقاضاه الواقفون أمام النوافذ الأخرى للصرف، تباً لى وللشيطان، من راقب الناس مات هماً وغماً، تذكرت مقولة أبى الباقية أرض بقسمة ربنا دايماً .. الفضول الفج يعود، فأرى الحزم المالية الضخمة بين أصابع الواقفين أمام النوافذ المجاورة .. أعود ثانية مع أحلامى لابد من عربة خاصة، بل حارس أيضاً، ثم لجأت إلى حيلة ثالثة، بل فضول آخر أقرأ على الترتيب (لافتات) النوافذ بترتيب تصنيفها يقول : الفنانون،

المعلنون، الممثلون، الراقصون والراقصات، الصـــلمتون والكومبارس، الوزراء والنواب، صاحب الإفتـــاء ورأس المشيخة، وأخيراً وجدت نفسى أعيـــد قـــراءة نـــافذتى الآخرة (المتحدثون والمعدون وأســـاتذة الجامعـــات) .. تسمرت قبالة النافذة انتظر الصراف ينادى علىَّ اســـتلام قيمة المكافأة الموعودة.

مضت الدقائق كالدهر، كانت حبلـــى بـــالأحلام والمنى .. أشتعل فكرى شيباً، رددت فى أعماقى مقولـــة الغزالى الأكبر " كِل لكل عبد بمعيار عقله "، فجأة تلقفت حواسى انتباه أذنى مع نداء الصراف علىَّ بالاسم وفـــى لهجة ماكرة:

الدكتور شحات أبو محجوب : وَقَّع هُنا ..

وفى مهارة وسرعة ســـلمنى يـــداً بيـــد بضعـــة وريقات، حصرتها عداً ونقداً فى ثلاثمائة جنيـــه، هـــي حصاد دورة إذاعية ربع سنوية، وهى أيضاً كد الفكـــر وحرق الدم ووجع العين، مع أكوام الكتب و .. ومـــوات أحلام أسرة حلمت معي، لم أشأ مغادرة المبنى، بل نوافذ

الصرف إلا والنية معقودة على تمزيق اللافتة المعلقـــة أعلا النافذة التى صرفت منـــها الوريقـــات المحـــدودة، خرجت أبحث عن مهنة أخــــرى يقدرهـــا المحـــترفون أصحاب الحواس المحترقة والعقول المتضخمة، أخطأت كثيراً في تقدير حكمي على فئات الطوابير المجـــاورة، فئات بضاعتها القدم والخصر والحنجرة، فرسان اليـــوم وربما الغد .



أحزان ضاحكة

□□ مرت السيارة الأجرة على محال إقامة العائدين من عطلة قصيرة ؛ في أقل من ساعة انتظم داخل السيارة ركابها المغادرون، بدأت نكات الركاب وقفشاتهم تعلو وتعلو حتى غطت على صوت محرك السيارة .. رمقت السائق في المرآة يضحك منا لا علينا، فقد أنقدناه

فى كرم قبل أن يتحرك إلى طريق مطار المغـــادرة .. تواصلت نكات الدكتور سامى شـــرف ؛ شـــقت جـــدار الصمت بحلوها اللاذع ومرودهـــا الضـــاحك، بلغـــت الضحكات بالركاب الحناجر، خرج الدكتـــور الحســـينى وهدان عن هدوء ممزوج بتوتر ؛ تبادل القاء القفشـــات الضاحكة والنكات الطريفة الممتعة ؛ شاركت الجميع جو المرح البهيج واللهو المباح .. بوغث الركاب بخروجـــى عن مشاهد الضحك الموصول إلى تأزم لا أعرف كنهه؛ صحت ونحن نقترب من سياج مطار المغادرة : كفى يـــا جماعة .. خير اللهم أجعله خيراً.

●● إجراءات سفر الثلة تمضى فى سهولة وســـرعة، كشفت صالة المغادرة عن صدرها الفسيح، لـــم نقـــابل بالعناء الذى ألفناه، فى ثقة عدنا إلـــى مقـــاعد انتظـــار صعود الطائرة ؛ مرة أخرى تتبـــدى الضحكـــات فـــى أعقاب النكات الهامسة، أصداء الضحكات تلقى بـــالبريق فى العيون فتتلألأ فى الأفئدة أضواء السحر، الفجر يشق جوف الليل، بينما ثلة المرح فى جوف الطائرة يـــأخذون

مقاعدهم فى انسياب ورشاقة ؛ الطائرة تشق الســـحاب على أنغام هادئة وأضواء حالمة ؛ طاقم الضيافة يشـارك الثلة الطرافة والجدة ؛ ها هى بين يدى الركاب وجبـــة " فطر الغراب " يبادرنا فى صوت ساخر صديقنا ســـامى شرف معلقاً على الوجبة:

- يا ما جاب الغراب لأمه ؟... !

يلكزه الحسينى وهدان قائلاً:

كلوا واشكروا ... واضحكوا وقهقهوا أيضاً...

لم يسكت سامى شرف عن ظرفة ؛ التقط أخــــر خيط وقال : قهقهوا .. قطعها يا عم حسينى مع مشروب قهوة الطائرة، وانخرطوا فى موج من ضحك.

●● مع شمس الشروق لا مست عجلات الطائرة مطار الوصول ؛ دقائق وأصطف جمهور الركاب فى طوابـير ثعبانية، تناثرت الثلة العائدة الضاحكة فى الصفـــوف .. الزحام يتزايد، النفوس تتأوه ؛ تذكرت ثانية مقولة جدتى

خير . اللهم أجعله خيراً .. انفراجه تجـيء كـوة أخـرى جديدة تفتح للمتزاحمين ؛ أقف خلف الحسـينى وهـدان أمام نافذة الدبلوماسيين .. مرقنا فى فرحة إلى حلقة مـن حلقات السيور الكهربائية حاملة الحقائب ؛ وما أدراك ما انتظار الحقائب..

●● مرت ساعة، بل ساعتان، لم تتعرف الثلة العـائدة الضاحكة على كامل حقائبها .. بقينـا حـول السـيور المتحركة نترقبها، كانت حقيبة ماكرة كما وضعها سامى شرف، تراوغنا كالثعلب .. المثير للغرابة أننا أمسـكنا بها غير مرة ولم يتعرف عليها الحسينى وهـدان .. آه من الخداع البصرى .. حمداً لله .. ها هو يعود فيتعرف عليها .. صرخت استعيد مقولة جدتى:

خير اللهم أجعله خيراً...

●● أمام نوافذ الجمارك، اصطفت الثلـة الضاحكـة بجوار الحقائب ؛ ولسان الحال يقـول إنمـا الأعمـال بخواتيمها .. غير أن سامى شرف لـم يعجبـه حديـث الحكمة أو العظة فقال تعالوا أقُص عليكم نكتة الوصـول

.. وضحكنا قبل أن ينبس ببنت شفه .. لاحـــظ رجــال الجمارك أننا نضحك ونضحك فى مرح مشروع ولـــهو برئ ؛ بينما لاحظنا أحدهم وهو يزمجر فيعربد بصندوق حلوى كعك العيد ويحيله إلى ذرات تعطلـــت أجــهزة التفتيش الجمركى .. حملت الراكبة الحقيبة تبكى الذرات الفتتات فى صمت .. طال انتظارنا لإصلاح الأجهزة .. رددت الثلة مقولة الجدات:

خير .. اللهم أجعله خيراً .. تشجعت ؛ فتقدمـــت نيابة عن الثلة إلى رجال الجمارك استنفرهم تفتيشاً ذاتيـاً بالطريقة اليدوية .. تنقلنا من جهاز إلى آخر .. صـــف هنا وصف هناك .. وأدار رجال الجمارك علينـــا لعبـــة الكراسى الموسيقية بين الأجهزة .. حسناً .. يـــ..

خرست الضحكات والقفشات ؛ انحسرت فـــى ردهـــات طرقات المغادرة النهائية أصداء المرح والفرح، فـــى وجوم تقدمنا إلى آخر الإجراءات.

●● تقدم الثلة د. الحسينى وهـــدان، فتحـــت أحشـــاء حقيبته، أخرج رجل الجمارك منها كتبـــه .. همـــه ...،

لكن الجمركى أومئ إلى تعطيل آخر بشأنها ؛ أشهر الحسينى له جواز سفره .. هذه كتبى تحمل اسمى .. هذا هو جوازى .. أجازة رجل الجمارك، شغل الحسينى بغلق الحقيبة وستر عورة الكتب .. أفسح الطريق لى .. واتبعته بعد دقائق .. انتظمت الثلة العائدة أمام الحقائب خارج المطار تنشد سيارات الأجرة لتحملنا إلى مسلكننا .. بوغتت الثلة بالحسينى وهدان ينعى الفقدان الغريب لجواز سفره .. هرولنا .. حاولنا .. تآخينا فى البحث والسؤال عدنا بخفي حنين إلى سيارة الأجرة، بينما الصمت المطبق يلف الانسان والزمان والمكان.



من أوراق أبى سالم الزهرانى

□□ التقيته عجوزاً ؛ ذات أمسية من أماسى الصيف كان الناس وقتذاك يراقبون فى دهشة أصـــداء توقيـــع اتفاق " كامب ديفيد " ؛ حين التقيت الشيخ الزهرانـــى كنت على مشارف من الثلاثين ؛ بينما عانق هو مستهل منتصف العقد الثامن من عمره ؛ فــى تلــك الأمســية

التقطت ملامحه، كان بائن الطـــول، هـــادئ الطلعـــة، ينصت أكثر مما يتكلم ؛ لا تكاد تشعر بفروق واضحـــة بين لون بشرته ولون شعره الأبيض، ودود ومتفـــائل، شدنى إلى شخصيته، طيبة القلب المُفعمـــة بذكريـــات ماضية، لا تحس أمارات الشيخوخة أو العجز إلا مـــن نتوءات وتجاعيد تعلو جبهته ؛ كانت تجـــاعيد الشـــيخ الغائرة تغريك للغوص فى تلافيفـــها، اقـــتربت منـــه، أحبنى وبادلته صدق شعوره، شعرنا فى تلك الأمســـية كأننا أصدقاء من جيل قديم ؛ وعندما جاء دور الشـــيخ فى برنامج الأمسية الشعرية لينشد الحضور قصـــائده الصدوية، افترقنا على أمل بعودته إلى مقعده المجـــاور لى بعد قليل.

خلوت فى ركن بعيد من الأمسية بواحـــد مـــن أقارب الزهرانى، رجوته فى إلحاح أن يحدثنـــى عـــن الشيخ، توسلت فى الطلب وأن يوجز ماضيـــه ؛ بعـــد تفكير صموت لبى أبن قريته وقريبه رجـــائى، طفـــق

محدثى المهم والثقة الذى كان يشغل عميد كلية الطب في جامعة المدينة ـ طفق يقول:

ولد الزهرانى منتصف العقد الأول من القرن الماضى لأبوين ينتميان لأسرة متوسطة ؛ تمت جذورها لأولى إلى جنوب الجزيرة العربية، سميت قريتنا باسم الأسرة .. وكانت حياة الأسرة تقوم على فلاحة الأرض، أكد لى أبى غير مرة، أن الزهرانى كان زميله فى كتاب القرية والمدرسة الأولية الإلزامية .. حفظاً معاً القرآن الكريم، انخرط الزهرانى فى التعليم الذائع الصيت وقتذاك، تخرج فى مدرسة المعلمين التى أهلته فى سن العشرين للتدريس فى مدارس شمال البلاد وجنوبها، اغترب الزهرانى عن زهران، وبنى بزوجته الأولى وأقام معها فى قرية أباظة، لم توفق معه، صبر عليها ولم تتوافق فطلقها، لم تمض شهور إلا وقد بنى بالزوجة الثانية والأخيرة، شهدت معه أغلب القرن، ظلت أم أولاده الوفية، بدأت أعاصير الحياة تدفعه بقسوة إلى ..وقاطعت استرسال العميد،

شاكراً له إجمال البدايات، كان الشيخ الزهراني يغـــادر منصة إلقاء الشعر قاصداً مقعده إلى جانبي.

كاشفت الزهراني عن رغبتي في معرفة أسـوار الحفر الغائرة في تجاعيد جبهتـــــه ؛ فليســت مألوفــة كتجاعيد أرذل العمر ؛ وإنما آفاق حبلى، التقط أنفاســـه وقال في حكمة:

- دعك من حفري وتجاعيدي، أمامك المستقبل أنـــت مشغول بأطروحة جامعية فيما علمت .. أجبته عـــن الحرص البادي في كلامه في مبادرة صحفي يلح في الطلب مع مصدر خبرة:

- أيها الشاعر الشيخ ... أطمع أن تقف بي فقط عـــن أبرز محطات تلكم الحفر الغـــائرة، أراهـا كنـــوز مطمورة...

سكن اطمئنان في عيني الشيخ فقال:

- من بين محطاتي التـــي تطلـــب توجـد غرائـــب وعجائب، قد يتهمك البعـــض بـــالتزيد والعبـــث ..

عاجلته وقد تأكدت أنه وافــق بــالبوح عــن أوراق تجاعيده وقلت:

- لن تخسر شيئاً، هيا بنا ننتقل من القائمة الصاخبــة إلى غرفة مجاورة هادئة، غادرنا القاعة، يتقيد منــى وأنا مشغول بحمل حقيبة منفوخــة تخــص الشــيخ حملتها عنه مع مسجل الصوت الذى ينتظرنا.

اعتدل الشيخ الزهرانى جالساً، الهدوء ينبــض بروعة الغرفة، بدأ الشيخ بدلاء ذاكرته الحكيمة، ألقــى شجونه على مسامعى ومسجل الصوت يدور فيخــتزن فيض كلامه، استهل البوح فقال:

المحطة الأولى أو الحفرة الغائرة التى تركــت بصماتها فوق تجاعيدى، كانت ثمــرة لمقــدورى فــى العشرينات والثلاثينات، خلال تلك الفترة طلقت زوجتى الأولى، أهملت عملى التدريسى، لجأت لكتب القــرآن وتفاسيره، وأمهات كتب التراث كذلك، اتخذت شــعار حياتى من المعنى الظاهرى للآيــة الكريمــة " ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنــون " . بــدأت

فكرة البطولة تتملكنى، فالنـــاس المعجبـون بخطبـى الدعوية واجتهادى فى التفسير يزدادون، اتسعت رقعـة مساحتى فى الدعوة الدينية، لمع نجمى وسطع، واتســع الرزق وضاقت تجاويف الحفـــرة الغــائرة .. وفــى منتصف معمعة الحرب الكبرى الثانية تزوجت بالزوجة الثانية، توهمت أننى شخصية روحية فذة تفوق مكانـــة علماء الدين، استغرقنى الدعوة إلى الله وسنة رســوله، كانت الناس يرددون أعتاب كل خطبة لى:

خطيب سنى بارع، شاعر عربى رائع، و...

لم أفكر لحظة واحدة فـــى شـــهوة مـــن يحكـم ويسوس، بل شملنى إحساس بالبطولـــــة، أو فروســية الدعوة، بالحكمة والموعظة الحسنة .. كانت متعتى بعد ذلك، قراءة الذكر الحكيم ثم أوراد من دعاء منظوم.

صمت الزهرانى فترة قصيرة وواصل بوحه يقــول : " أذكر سنوات احتشاد زمر الأحباب حولى فـــى لقــاء أسبوعى أقمت لهم سرادقاً ليلة الجمعـــة، كـــانت أوراد السرادق ودعواته حديث المدينة، كنـــت أمــد موائـــد

الطعام فى ختام كل لقاء، انهالت الفيوضات على موائد الرحمن غير الرمضانية، كانت الخيرات كثيرة لكن الأفواه أكثر .. وأكثر .. وحين توقفت عن مد الموائد مكتفياً بتحية واجبة من مشروب الضيوف .. انفضوا جميعاً !! .. كانت تلك حفرة عميقة وملغزة تشى بأقنعة الأحباب ..تحدرتْ دمعتان، أعقبهما بقوله يستدعى الذكر الحكيم : " إنا لله وإنا إليه راجعون " الكل ينفذ وما عند الله باق .. أخذ فى التكرار، .. أغلقت مسجل الصوت، رجوته أن يجفف دموعه ويستريح قليلاً.

بدأ الجو فى الغرفة أكثر هدوءاً ؛ الأصوات والأضواء تشير إلى نهاية الأمسية المجاورة، تنهد الشيخ وأكمل بوحه فقال : أما أكثر الحفر إيلاما لى فهى التى رسمت تداخل ثنيات وخطوط تجاعيدى فأولادى ذاقوا مع زوجتى ويلات اغترابى وقلة مالى، بل عدمه أحياناً، كانت غربتى عنهم غير مفهومة وإلى الآن ؛ ثلث قرن من معاناتى مع زوار الفجر ووشايات كل كائد مارق .. كنت أسهل الضحايا بين أيديهم، لم

يسألنى أحدهم أو يفهمنى .. اقتادونى ذات ليلة ممطـــرة موحلة بالطين، إلى سراديبهم الأضيق من أخـــاديدى .. خرجت مع نحيب الزوجة وبكاء أولادى وأنا أطمئـــــن الجميع : معكم إلى حيث تريدون .. " فالله خير حافظـــاً وهو أرحم الراحمين."

رفع النادل كوب الشـــــاى الـــذى لـــم يشــــربه الزهرانى ؛ أشار إلى إيقاف مسجل الصوت، عجز عن الكلام، تساقطت عبراته وأخرج ورقة مخطوطة عتيقـــة من جيبه، وترك بين أصابعه قصاصته أخرى ورقية .. وقال لى أقرأ سطوراً من أوراقى وأوراقـــهم ؛ كـــانت المخطوطة بخط يده تقول:

"لبثت الليالى الطوال غير مـــــرة فـــى حبـــس احتياطى تحت التحفظ والتحقيق، تم التحفظ ولـــم يتـــم التحقيق، مرت تلكم الليالى كليلة ليـــلاء طويلـــة قـــدر عمرى، فُكت قيودى وعصابة رأسى السوداء، ونقلنــــا فى رحلة رتيبة أكثر كآبة مـــــن الحبـــس الاحتيـــاطى المكرور إلى هناك إلى مكان بعيد .. فى صحراء غـــير

مأهولة إلا بالسجن وأسواره وحراسه وكلابه .. عرفت ومن اقتادوهم معى أننا فى اعتقـــال .. التهمـــة بيــن الحراس تحفظ سياسي .. كان الحراس ينطقون كلمـــة (تحفظ) بضم التاء والحاء وتسكين ما بعدهما فنضحــك من أمية الزوار أياهم وأمية الحراس كذلـــك !!! شـــر البلوى ما يضحك !! وأسلمتنا الليـــالى إلـــى ســنوات وسنوات أحصيناها صنوف الهوان والعذاب ... كـــان ليمانى يزداد مع زيادة جرعات زبانية المعتقل وبطشهم بى وبالنزلاء !! .. آه من الريح العاتيـــة فـــى قلـــب الصحراء وهى تعصف بك من نافذة كأنها فوهة مدفـــع لا ريح، كانت تدق عظامنا الملاحقة لأرض الزنزانـــة البالغ مساحتها أكثر قليلاً من قوام رجل طويل .. أمـــا الحفرة الأكثر اتساعاً بين عينى ؛ فهى أوسمة الســـجان التى حفرها يوماً بعد يوم وهو يستمتع بنافورة من دمى تطاله حين راح يضربنى بمؤخرة سلاحه صارخاً فـــى البرية:

قُمْ إلى طفحِ القوات ! .. عينـــك مخيفــة، ولا يدخل إليها الدم .. قم يا مسجون . نم يا مسجون .. وقم يــ .. وتمضى السنوات متثاقلة ومريرة، عزلة تامــة، نسيت مظاهر الحياة الدنيا، لا رسائل ولا مــن يسـأل عنك، والمحامون ممنوعون .. فكل شئ حواليك منـــع وعدم، قررت التأقلم، شُغلت فى زنزانتـــى الضيقــة، بتأويل أحلام المعتقلين، نجحــت فـــى توســيع رقعــة مهمتي، كانت تأويلاتى لأحلام الـــنزلاء أشــبه بــآخر زبالات فى مشروع حلم مكانتى الروحية المســلوبة !.. معجبوا الأمس خذلونى وضخموا فى ذاتى ثم نســونى، النزلاء هنا أحسبهم من نوع آخر لن يخذلونى ؛ ذلــك أننا فى الضراء قسمة بين مخــالب الســجانين، كنــت أتواجد مع النزلاء عند كل صافرة يطلقها السجانون، إذ نخرج عليهم كسرب من طيــور مذبوحــة ! ينتظــره متوحشون غير آدميين تكرر مثل هذا حيـــن يــأتى

زوار الفجر فيتم التحفظ، ولا يتم التحقيق، وبعد سنوات يطلق سراحى فأعيش الخوف مدة، فيداهمنى التحفظ مرة أخرى وثالثة و وطوى الشيخ الزهرانى ورقته المخطوطة، أودعها جيبه كدفنات الأتباع من الأحياء .. رفع يده اليسرى بالقصاصة الورقية الأخرى، كانت مطبوعة، قال فى سخرية لاذعة سأتلوها عليك من دفاتر أحوال ما وراء زوار الفجر:

"يُعتقل السالم محمد السالم على ذمة التحقيق قضايا أمن دولة عليا، ويشتبه فى إمكانية تجنيده ضمن خلية من خلايا تنظيم الـــ ... الـــ" !! ...

تأملت صوت الشيخ وهو يتلو مغزى "اشتباه" و "تحفظ" وما بينهما من عذاب.

وحين كان الشيخ الزهرانى يلملم أوراقه، وقد بدأ عليه الإجهاد، قررت محاولة مداواة بعض شطآن الحفر فى تجاعيده، قلت له فى أدب جم:

أوراقك خضراء ولن تذبل أنت رجل الخير والعطاء، لقبك الباقى، بل القلادة التى تقلدتها بالفعل، معك الله والقرآن، ودعوات الأوراد، ستجلو لله القواءة الصامتة، وسنصلى معك، أحبابك كثر .. لم يخذلوك ؛ يكرهون القهر مثلما يكرهون العنف ويحبون الحى الذى لا يموت.

علَت جبهته أمارات التفاؤل، أمسك بمسبحته الطويلة وهم بالتسبيح وهو يهتف بنداء علوى باق:

" وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين " ...

فجأة وقف محدثى فبدا كالنخلة الفارعة وأشار فى همة ونشاط إلى أسفل المنضدة قائلاً:

ناولنى حقيبتى لو تكرمت..

قدمت للشيخ الحقيبة المنفوخة، أخرج منها صندوقاً صغيراً ووضعه علىَ المنضدة ثم فتحه وأخرج منه حزمة أوراق عنوانها يقول (حصاد السنون

السجون) وعلى الترتيب، بدأ يطلب منـــى التدويـــن لا التسجيل ؛ يمكنك التأريخ على قـــرن شـــهدته وهـــذه أوسمتى أو قلادتى التى تطلب:

مجموعة أشعارى الكاملة، شهادات الدكتـــوراه لثلاثة من أولادى، براءة سيرتى بين تحفـــظ وتحقيـــق نصف قرن، شهادة الأم المثالية فى أول عامْ أتنسم فيـــه عبير الحرية باسم زوجتى الثانية، بل الأولى والأخـــيرة ... قبلت أوراقه، وجبينه وخرجت من الغرفـــة أتـــأبط ذراعه، وأمام بيته ألقيت نظرة وداع ... ولم أره بعدها.

* * *

الليلة الكذوب!

☐☐ غادر المصنع راكباً دراجته العتيقة متوجهاً إلـــى داره، هبت نسائم خفيفة فتما يلت أعلام بلاده التى تعلـــو مقود الدراجة، استنشق الهواء الأفضـــل مــن ملوثـــات وردية مصنع الأسمنت الذى يعمل به ويسكن بـــالقرب منه، بدأ يتخلص من عناء العمـــل، أطلـــق لأحاسيســـه العنان، أسرع الدفع بالدراجة، راح يغنى فـــى صـــوت

يعكس ما يسمعه من ألحان وأغان .. بعد قليل أوقف الدراجة وسكت عن الغناء، تسمر قبالة وعاء الفول النحاسى المتكور سال لعابه مع تصاعد أنجرة لها روائح مألوفة .. قرر أن يضاعف كمية الفول المشتراة .. قال للبائع : زد من التوابل الحارة، ولا تنسى البصل .. البصل الجاف منه والأخضر ؛ مع الجرجير الخطير..!!

لقيه أمام باب شقته الضيقة، زمرة من الأبناء، حياهم بنظرات الأبوة الحانية، ناولهم أكياس الفول الطازج، احتفظ بالتوابع يتأكد من نظافتها وتقديمها تامة على طاولة العشاء، تسابق الأبناء فى تسليم الأكياس يدا بيد إلى الأم وراحوا يترنمون ويستعجلون إعداد الطعام ويقولون:

ليلة الجمعة نوقد لك شمعة هم هم هم.

ليلة الجمعة ؛ بسرعة يا ماما .. هم هم هم.!!!

●● تحلقت الأسرة حول طاولة طعام العشاء، بدت الأم فى أنظف ثيابها، جميلة فى عيون من حولها، لمع بريق فى عينى زوجها، اتجهت الأبصار والأيادى إلى ما فوق

الطاولة، أضفت الأم على وجبة فول الليلة نكهة ولـــذة، كم تفننت ككل يوم فى أشكال الطهى والتقديم، لكن فـول الليلة له مذاق خاص وكمياته أوفر .. لم تنس الزوجـــة إضافة حبة البركة إلى طبق الزوج، تناثرت بين الأطباق مقبلات أخرى ذات فائدة، احتشدت حول الأطباق أحزمة الأخضر ورؤوس اليابس، لاحظ الأبناء الأب يأكل فـــى نهم ملحوظ، ملأ معدته بكامل طبق الفول المدعـــوم .. ملأت البطون الأخرى .. قال أصغر الأبناء لأبيه قبـــل أن ينهى طعامه:

– تمهل يا أبى .. هناك قصب السكر ؛ والشاى..

نهرته الأم وقالت : أسكت يا شـــقى .. الخـــير كفاية، ربنا يزيدها نعمة ويحفظها من الزوال، كل يا سيد الرجال .. نهضَ الأب يلهج بالشكر ويقول فى الجميع:

– كلوا وأشبعوا .. كلوا واشكروا الله...

فى ركن من الصالة، أنزوى الأب يهذب بالسكين عيدان قصب السكر وبعد دقائق كـــانت بيـــن أيديـــهم وأسنانهم، فيمصون ويمصون وعيونهم لاهية مع إبـــهار

التلفزة .. لم ينس هو الآخر أن يمص من القصب عـوداً كاملاً !!.. تجشأ وقام يدعى التثاؤب وهو يتجـــه إلـــى غرفة النوم .. قال له الابن الأوسط:

- و .. الشاى يا بابا ؟!

رد عليه فى حنو:

- ضعه فى غرفة النوم . سأشربه فى السرير.

شغلت الأم بنظافة أوعية طعام العشاء وأوانيــــه، راحت تغنى فى صوت ناعم غير مسموع:

الليلة .. الليلة عيد .. على الدنيا .. سعيد..

نحكى ونزيد .. الليلة .. الليلة عيد..

تَوقَفتْ عن الترنم فجأة إذ تذكرت أبو سعيد الـذى سبقها إلى غرفة النوم، حدثت نفسها بصوت عال:

- كارثة ! لو أبو سعيد راح فى النوم قبل مــــا يعـــدل مزاجه بكوب الشاى!

●● فى الوقت الذى شُغل خلاله أغلب الأبناء بـــبرامج التلفزة، يعبثون بمفاتيح تغيير القنـــوات حيـــث تتنـــافر الرغبات ؛ كان أحدهم يدبر أحد المقالب .. دس لوالـــده

فى كوب الشاى جرعة مضاعفة من أقراص منومـــة ؛ واستمر يراقب مؤامرة الليلة .. ! بدأت كميات الطعام التى التهمها بعض الأبناء تعلن عن أثارها هنا وهنـــاك، مـــا لبث الصغار أن تناوبوا النوم فى أماكنهم وقـــد ثقلـــت أدمغتهم من فيض بطونهم ؛ أغلقت الأم جهاز التلفـــزة بعد تأكدها من نوم الأبناء جميعاً، بـــدأ يســود المكـــان فترات من سكون ؛ انتهى دورها الليلة كأم، فبدأت تبحث عن لعبة دورها كزوجة.

أطفأت الزوجة أزرار الكهربا، شعرت بأن كـــل ما حواليها قد تهيأ لإسعادها، غلقت الأبواب والمنــــافذ، تأكدت وهى تستبدل ملابسها بملابس النوم أن زوجها قد شرب كوب الشاى عن آخره، حلمـــت بفـــارس الليلـــة أحلاماً منتظرة، وشيكة الوقوع، الجو العام يشير بإمكانية التحقيق، الزحام والضيق فى المكان كثيراً ما يحـــولان دون تحقيق الأحلام المشروعة .. تمددت فى إغراء إلى جواره، لامسته، كان يغط فى نوم عميق، راحت تحسـبه فى راحة، حسناً، بعد طول الراحة ستقوى خيوط الحلـم،

تنهدت، بدأت تلاطفه باليد واللسان .. لـــم يـــرد .. لـــم تيأس، يتعالى شهيقه وزفيره، حاولت إيقاظه من جديـــد، لم يقدر على التركيز .. حاول مبادلتها دغدغة الحواس، لم يقدر على أى شئ، حتى الكلام قد حبـــس، خمـــدت أنفاسه، ارتخت مفاصله، تحولت إلى جانبه كقطعة مـــن جليد يتنفس .. الأحلام تتوارى .. نامت فـــى صمـــت غاضبة، ومع شمس الضحى صحا من نومه فى تثـــاقل شديد، لم يستطـع الوقوف .. تلفت إلى جانبـــه يتذكـــر السويعات الحالمة وهو يتحسس قسمات وجه زوجتـــه، كان مفادها خيبة أمل فى أحلام كذوب لفت ليلة مسروقة من عمر الزمن.



ثرثرة جانحة !

□□ حملق بعينين شاردتين ثم خرج عن صمته ؛ بـدأ يتكلم مع كل من يسمعه أولاً يسمعه بالشكوى القائلة:

- آه من أشقائى وشقيقاتى : حرمونى .. سـبقونى .. خاصمونى ! كانت تدبر له الأفانين بعدد السنين كـى

يتمايز فى قطع الصلات مــع أرحامـــه .. آه مــن كيدهن العظيم .. ثلث قرن وهى تدس وتتفنن فـــى إشعال النيران .. اللسعات الغـــائرة بـــدأت تطـــال الجميع ، بينما هو وهى يستمران اللعبة.!

توسع صاحبنا فى تعميق التوهـــم بالشـــكوى .. استعذب الخصومة وصدق التأويل المريض بأنه مظلوم ومحروم ومسبوق ومعزول .. نسى صاحبنـــا عدالـــة الرزاق الرحيم ، لم يرحم أحداً مـــن ذوى رحمـــة .. مضى يثرثر حرمونى .. سبقونى..

أسلم ذاته إلى انعـــزال عجيـــب عـــن اخوانـــه وأخواته ؛ وقبع فى انطواء أحادى ممل:

دوائر الانطواء تحكم حلقاتها على بـــاب داره ، الثرثرة الكذوب تزداد ، راح صاحبنا يصنع على وهمه مفردات من الماضى البعيد .. بدأت النساء قبل الرجال تتلقف ثرثراته المتدفقة بحجم مياه المحيـــط .. نســـاء الحى ينسجن من أوهامه الأقاصيص والحكايـــات .. آه من ظلم أرحامه له .. النساء فى بحث دائم معه عن ســـو

التفاف . شقيقاته الإناث حول الرجال من أخواته دونــه .. يخرج ثانية عن صمته:

- عصبة ظالمة اجتمعت على .. إنني الأعزل لكننــى الأفضل!

لابد من مجابهة لتكف الثرثرة ، اختلف إلى دار صاحبنا غير مرة من قاطعهم ولاحقــهم فــى غيابــهم بالثرثرة .. زار داره الأرحام الذكــور مثلمــا التقــى بالإناث منهم ، الثرثرة الواهمة تزداد ، والنســاء فــى الحى يسبقن رجاله فى نقل الوهم:

- حرمونى .. سبقونى .. عزلونى..

طالت التهم بعضهم وسخر منها البعض الآخر ، أفاض فى الوهم وتسللت إلى مسامع أرحامه تفســيرات أوهامه القائلة:

أجل حرمونى من ميراثى! أيــن نصيبــى فــى منقولات بيت الوالدين الذى كان ؟ بــل أيــن الذهــب والأوراق النقدية والماكينات و ...لقد ابتلعها الأخ الأكبر يباركه من حرمونى معه .. كان النصيب هو الخمــيرة

التى جعلته يرتفع ويرتفع فى الشأن والعمران ؛ أما أنـا فـدائماً الحزم المتماسكة أقـوى ، لا ينـال منـها إلا بتفرقتها إلى عيدان؛ حكمة باقية استهلها أحدهـم فـى مبادرة مع صاحبنا المتوهم لكيف عن الثرثرة ، ويخرج من شرنقة العزلة .. يا للبؤس !.. الكيد أقوى .. أتبعت الحكمة بإيقاظه من الواقع الماثل:

- لقد قسم الميراث من زمن وبالعدل ، بل كما تحـب وعن تراض .. لم تظلم .. لعلك تذكر أننى كنت أحد الشهود وقتذاك..

رد فى عصبية غير مألوفة لا تعكس طيبة قلبه:

- حرمونى .. سبقونى..

قلت فى محاولة أخيرة استعطفه:

تأمل أحوالك فأنت المميز !! كن راضياً بقسـمة العباد ، ومن قبل ومن بعد بأرزاق الله !.. أفق .. أفق.

لم ينبس بحرف ، غادرت داره ولسانى يلهج بالدعاء.

- الله يهدى من شاء .. الله يهدى من يشاء.

لا تزال شائعات القرية تنسج خيـــوط الوهــم ، وتعيد وتزيد فى الثرثرة .. حرموه .. سبقوه .. تغنــت النساء حواليه ظلموه .. ظلموه .. ظلموك يا.....................

تجمع أمام مسجد القرية جمع من المصلين بعد صـــلاة الجمعة يتحلقون عالم الاجتماع ، فخر قريتـــهم وهــو يعقب على الشائعات والثرثرة فى منطق لا يخلو مــــن نبرة حزن:

- يا ناس .. كفوا عن العبث ، ما حرموه وما سبقوه، سبحان الباسط الرزاق .. ارفعوا عنه دوائر النســاء واخلعوا عنه خيوط الوهم ، ستلوح فى الأفق من بعد صدق الدعاء فيوضات الرضا التى تمحــو حجــب الحرمان.

* * *

مشاهد من غابة النار....

(١) سُعار

□□ قال كبير الذئاب للقطعان فى الغابة:

- يا معشر الحيوان ... روجوا للكذب فى الغابة وكل غابة . بل لدى السادة فى الغابة الأم ... اجعلوا

الكذب رخصة البراءة ؛ شنتوا كل داجن وخانع فـــى غابتى ... معذرة .. غابتنا..

- تحسس الذئب الأكبر مخالبه وارتفع العواء فصاح:

- اقتلوا الغوغاء والفرقاء الأغبياء ... ولا تنســوا أبــداً قناعنا الذهبى ، أذيعوه عند كل المفــاوز ، ولــتردد الأبواق : هم الذين يقاتلوننا بين الماء والماء سـيلقون بنا فى الماء أيضاً

نهض الثعلب نائب الذئب الأكبر وقال:

نفعل ذلك دائماً ... نخطط فى مكر ، وننفــذ بــلا رحمة ؛ قتلاهم لعبتنا، خمرنا .. لا ضـــير مــا دمنــا نستطعف نجدة الغابات الحليفة!

قاطع الخرتيت حديث الثعلب وقال:

أيها الذئب ، يا معشر القطعان ، أنا وفصيلتـــى ؛ بل كل الفصائل من مرابط مـــهاجم ، نعيــش للقنــص والامتصاص ... مخالبنا دائماً جاهزة للـــذود عــن أرض الغابة وهيكلها وتدخل كلاب الغابة فى نباح موصـــول ، استطال النباح ، وفجأة عوى راشد الكلاب وما كرهـــم

القائم على الأمن والشرطة فى الغابة ... واصل العواء النباح وقال:

متعطشون أكثر للدماء ... مخالبنا وترسانة أسلحتنا لم تعد كافية لإبادة الجميع نريد أسلحة أمضى . وأرضاً لا يشاركنا أصحابها الغوغاء .. ها .. هو .. هو .. تدخل كبير الذئاب ، إذ رأي كلابه المسعورة تعلق السلاح وتشتهى المزيد من الدماء .. فأومأ إلى ببغاء غابته الذى بادر الجميع فتصايح : هيا زمجروا وعربدوا متى وأينما شئتم .. مخالب .. رصاص .. أكفان .. قمع .. وخمر .. عِيشوا أيها الذئاب والثعالب والكلاب .. بين مخالبكم لذة لا تنقضى.

(٢) وجع

● فى أرجاء الغابة بين النهر والبحر وعند حدود الجيران أخذت الأعشاش والأوكار تتزايد في نهب

وتوطن .. ومخالب تستوطن ، ثم تهاجم وتعربد وتعـــود إلى مناطق أخر من الغابة بينما ينزوى المســـلوب فـــى أشباه جحور . مخيمات يخيم عليها الطيـــور الجارحـــة قنص ، قصف ، نار ودم وحصار وجوع ، تئن الأفراخ المحاصرة من كل الجهات .. مخالب القصـــور مدببـــة ومحشوة بالحقد .. الحصار الخانق يطـــول .. اســـتحال الوجع إلى مذابح صامتة .. زغب الحواصـــل ، الإنـــاث الكهول يتساقطن، فوق المخيمـــات المحـــاصرة تعربـــد الصقور وتحوم .. تمكر .. تحوم .. وتعاود القنـــص .. القصف .. الانقضاض .. الوجع .. الافتراس .. الوئـــام الكذوب الرصاص .. الوجع المقيم.

(٣) بكائية اللذة!

- وقف بعضهم أمام الحائط العتيق ، اللحـــى الطويلـــة تفصح عن سواد مماثل فى صدور هؤلاء .. القبعـــــات الأكثر سواداً تغطى الرؤوس ، ألسنتهم تقذف بحجم السم

الزعاف .. المتشحون بالسواد يبكون هكـــذا ، ويبكـــون وأياديهم لا تجف أبداً من الدماء ولا تكف عن البكـــاء ؛ الرصاص الخارق الحارق يـــروع أصحـــاب القلـــوب الخضراء ، نالهم وهم بين يدى الله .. أريقت الدماء فـــى رواق المسجد المبارك ، حوله لا يزال أصحاب القبعات السوداء يتمايلون يبتهلون الزيف ثم ينخرطون فى البكاء من فرط لذة امتصاص الدماء ... مخالب القتلة تســـتطيل وتميل مع المتشحين بالسواد . كأنما تقـــول فـــى عنـــاد وغطرسة:

-مرحى معشر الذئاب .. الفناء للحملان ... ليبـــارك رب الهيكل فى المخالب وعلى الأرض الرصاص .. الأكفان .. الـــ..

(٤) زيتون وبارود

● فى أماكن وعرة من الغابة ، متبـــاعدة ، ومحـــدودة وضيقة ، حُوصر المسلوب ، أحكم الذئـــاب مخالبـــهم .

القيود .. السدود .. القذفـــات الراجمـــات .. الدهـــاء .. الحصار الرصاص .. المخيمات تتلوى ، تنهض فــترقد تركض وتتشبث بالأرض دون جــدوى ، تزهــق كــل محاولة ، مثلما تُزهق فى وحشية أرواح الضعفاء..

قال الشيخ اللاجئ إلى عالم الحيوان يحدث نفســـه فــى صمت:

- آه من مخالب الذئاب وسعار الكلاب .. آه..

رأى الحفيد شرود جده الصابر الكظيم فقال:

نحن زرعنا أشجار الزيتـــون ولـــن نـــترك أشـــجارنا للجرافات أو للبارود كى تُقتلع أو تُحرق بل سنشـــاركها أنفاس الحياة . لا تنس يا جدى .. أبنك الشهيد ، الــــذى مات تحت تلك الأشجار فرواها بالدم الغالى وانتبه الجد، أفاق وتذكر فتحدرت على أخاديد وجهه قطـــرات مـــن دموع امتزجت بالحزن والأمل بادر حفيده فـــى حنـــو وقـــال:

- الحق معنا .. الله معنا يا بنى .. وسنثأر بمشـيئة الله وعونه.

(٥) صرخات..

• اليوم في الغابة ككل يوم مضى ، أفانين عجيبة للحصار والقنص ، العمر لحظة ، النيوب والمخالب تغتال طفولة الشجر والكائن الحى أنى وجد ، جمدت الأشجار فى أماكنها ، الركض والمرح والغناء باتت أشياء مستحيلة .. الاحتماء بالحجر، الأشجار هى الأخرى ثمار ملغومة ، استحالت الأشجار إلى جهامة وقتامة ، إذ سئمت النار والدم والبارود .. تئن وتستصرخ ، الغناء غصة فى الحناجر ، ضحكات ذابلة وخرساء إلا من بسمة علوية فوق شفاه الشهداء .. حاول الصغير الشبل أن يكتشف ما وراء حدود الحصار ؛ أمسك بيديه الغضتين جاره الفتى ، حاولا الخروج الفكاك أعادتهما إلى قيودهما المخالب والكشافات وفوهات الحديد والنار ، والأسلحة راجمة من الراجمات .. المروحيات .. الدبابات ، الأزيز والدوى والفرقعات

.. حاولا مرة دون جدوى .. ارتدا إلى المخيم ولســـان حال الصمت والقمع والتجويع يقول : " إن مع العســـر يسراً"

(٦)سجن اضطرارى

- أنزوى الصغير فى ركن من المخيم يبكى فى حرقه شديدة ، الأم الحنون تهدئ من روعة وتقوى عزيمته: لقد حُرمت أبهاء الطفولة فكن رجلاً ، لحظات عصيبـــة تمضى وعصا (الجد) تتجه إلى داخل المخيم ، الجد ينقر بعصاه الزيتونية العتيقة أرض المخيم ، حاول أن يعيـــد البسمة إلى حفيده ، فقال : ما بك يا قرة العين ؟ أعبـــث بخصلات لحيتى البيضاء ، أركب ظهرى ، مـــع أنـــه تقوس ... خذ منى يا درة القلب..

أشكرك يا جدى .. لكنى ضقـــت مـــن ســـجنى وقاتلى : أريد حقى فى اللعـــب أود رؤيـــة وملامســـة أرضى وأوطانى .. أنموت هكذا ؟ استشعر الجد حـــق

الحياة فبادر حفيدة قائلاً : بلى يا ولدى .. استعن بالصبر والصلاة وغداً ستكبر و.....

فجأة عاد الصغير الحفيد إلى هذيانه ، صياحة الصاروخ فى البرية:

حصار .. نار .. تجويع .. لا دخول ولا خـــروج ولا حتى حق العلاج، لقد جعلت غابة الجوارح الطارئــة الموت خيارنا الوحيد يا جدى .. أين أبى الشهيد يا أمــى .. أين .. أوقف الصراخ حكمة الجد فقال:

تعال إلى حضنى .. ستخرج .. ستخرج وتركض وتحيا .. أعداء اليوم هم أعداء الأمس يـــا عزيـــزى ، وستعرف سر ما تريد حين ألقاك فـــى الخامســـة أنـــت وأصحابك تحت شجرة الزيتون المعمرة.

(٧) غفوات

- غفا الشيخ الجد غفوات متقطعة ، طفق يحدث نفســـه فى حلم ماثل، خيوطه من فيض أنينه ومعاناة عشـيرته ،

لن يفهم حفيدى وأقرانه أبعاد ما قلت ، سأحاول، التاريخ يعظ ، الجغرافيا البشرية هنا متحولة ، المخالب قــــادرة على التغيير .. (استمر فى الهذيان المحمــوم) .. نوبــه عاقلة من غفواته ، من وطأة مخالب الذئـــاب الكــلاب والثعالب كذلك .. فى غياب الرعاة الأسود تتكاثر الذئاب الكلاب .. استيقظ الشيخ من غفواته وهو يتمتم فى صوت غير مسموع : لقد اقترب موعد الساعة الخامسة.

(٨) الكنز...

- احتشد الأشبال تحت شجرة الزيتون المعمرة ، اقترح أحدهم الغناء لو للمرة الأولى .. قال من محفوظاته :

وما نيل المطالب بالتمنى　　　ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً

ردد الجميع ما قاله ، بينما علا صوت آخر يقول:

وللحرية الحمراء بـــــاب　　　بكل يد مضرجة يدق

وفجأة يصل الشيخ الجد فى موعـــــده ، يتوقــف الغناء ، التقط الشيخ أنفاسه أشار إلى الأشـــبال بــالحفر أسفل الشجرة ، فى غير عناء التقطوا الوديعــــة شــبيه

المتربة ، فتح الشيخ الصندوق الخشبى ونفـــض عنـــه التراب وقال:

كنزكم الضائع هو هذا .. بهت الأشـــبال .. مـــد الشيخ يخرج أول محتويات الكنز هذا سيف عتيق نـــادر كما ترون من النقوش ، هو لمجـــاهد قـــاوم وانتصـــر ، بالرغم من المخالب الشرسة نفسها منذ قرون ، وهــــذه خرائط ووثائق عقود أملاككم فى الأرض المســـلوبة .. هذه أوطانكم .. أرضكم التى نهبوا وينهبون .. أغلق الجد الصندوق ، دموع الجميع تتساقط فى حســـرة وأمـــل ؛ عادوا إلى المخيم فى صمت أسيف.

(٩) سكون وشجون...

● استأنس الأسد الأكبر -من عرينه البعيد- رموز الغابــة وفى كل الغابات المحيطة ، حاولت فصائل الغابة غـــير المستأنسة الاحتجاج العام من بطـــش مخـــالب الذئـــاب والكلاب والثعالب ، وأدت القردة من وفود الأسد كـــل

محاولة نبيلة ، مرت الرموز يباركها الأسد الأوحد هناك .. استمرأت الببغاوات الصمت ، الجوارح أكثر بشاعة ووحشية ، السكون .. الرصاص .. السكون .. الطواويس .. وأقدم العروش والكروش تهذى بالمعاد والزائف .. الهدهد يفقد حدود المنطق، منطق الغابة الذئبية .. آلاف من القطعان الحملان تفترس وتقطع أوصالها من الكلاب الذئبية ولا مجيب .. الصدى انفعال .. شجون .. شجب .. على أطراف الغابة تقع فى فخاخ الصياد ثلاثة كلاب فتهب غابات الكون النجدة ، هنا أسر الكلاب ، يالهفى على أسر الكلاب.

(١٠) أمطار وأحجار

● أشرقت شمس الله ، أحاط زمرة الأشبال بالشيخ الجد، اتجهوا به إلى المخيم الأوسط ، العيون تتناوب النظر .. خطوة للوراء ، خطوات للأمام، المخالب تستطيل ..

الصقور تعود الحمائم تختفى ، برق ورعد ومطــر ، لله
دره ترنم الأشبال فى هتاف هز أرجاء الغابة:

الأرض المطر الأرض البشر..

الأرض الحجر .. الأرض الحجر..

أصبح لدينا البنادق : لنخرج كالصواعق..

* * *

سؤال إلى فضاء المسألة

□□ حين حطت طيور الغرب الجـــوارح فــوق أشجار الشرق ؛ أتت صافات تترى محملـــــة بـــالوعد الوعيد .. النعيب ؛ تحلم بأرض ووطن ؛ راحت أفواج الطير الجوارح تتسابق من غرب وشـــمال وجنـــوب لفرائس داجنة ومبعـــثرة ، درس القـــرون الغـــابرة .. الحزم المتراصة قوة لا تبقى ولا تذر؛ تكاثرت البـــوم

الجوارح بينما تقاعست الأحياء من طيورنا الألفيـــة .. عربدت الجوارح اليوم تتعـــب مـــع فحيـــح الأفـــاعى يطرحون السؤال الجواب .. الشتات .. الحق .. اللجوء .. الهروب التفرق .. هـــاجرت الطيـــور أعشاشـــها، طارت أسراب الحمام تبحث عن ملاذ ، لقـــد غطـــت أجنحة الجوارح أغصان الليمون، الزيتون ، كل الشجر ، ولا مبتدأ ولا خبر .. تحوصلت الجوارح تمنعـــت ، راوغت ، تحصنت ، استطال القيد المـــراوغ وبـــورك الفضاء التساؤل للناهبين ألــــــــ..

وعندما أفاقت طيور الشرق الأليفة ومعها زغب الحواصل ، يبحثون عن العش القديم ، كـــانت اليـــوم الجوارح ، قد تحصنت ، ودربت أفراخها الماكرة على الفتك بالطيور الداجنة ، هيا اقتنصوا وابدأوا فى أفـــانين التباكى والمسكنة .. المهزلة..

قال هدهد عجوز ، من فوق شجرة زيتون مُعمرة:

أيها الباحثون عن جواب لسؤال فضاء المسألة:

لن تحل المسألة .. لن تحل المسألة إذا بقيت النســـور لاهية هناك .. أو هاربة تجوب الفضاء متناسية دورهـا في حسم المعضلة .. نحتاج النسور الصقور ، أما شدو الهديل فقد أجهد حناجر من يحاصرهم نار الســـغب .. وحين تحط فوق الشجر النسور الصقور كل الطيــور ، سيهطل الغمام ناراً ونور ، بل براكين الغضـــب .. أم سيظل السؤال ، الفضاء ، المسألة أبواب تصـدح بــل تعزف على نغمات مفادها ويلات التشرزم والعتب؟



عدسات لاهية

□□ اصطفوا مع أسرهم إزاء ركب من سيارات فاخرة ؛ قبلتهم مدن الملاهي المبهرة، والمروج الفسيحة تنتظرهم، نعيم مألوف يستمتعون به في أيام الأحاد، وعطلات الأعياد والمناسبات.

كان " ديفيد " و "ماجى " و "زخاروف" يرفلـــون كغيرهم من بقية الأطفال فـــى ثيـــاب ثمينـــة معطـــرة، ويملأون جيوبهم بالمال الورق .. هذا من اليـورو وذاك من الدولار و ... وبين أيديهم يتبادلون ألوان الأطعمـــة، كانت حقائب سيارات يوم العطلة تكتظ بصنـــوف مـــن حلوى وفاكهة وحليـــب وممـــا يشـــتهون .. فيـأكلون ويشربون ويأكلون .. ويشربون كلما يركضـــون فـــوق المروج فى أمان .. الوقت فى اللعب كوقت الجد مــــن ذهب، تتعالى ضحكاتهم الصافية، يلامسون -خلال الكر والفر- بأصابعهم الناعمة خصلات شعورهم المرســـلة، المشهد هنا وهناك يشى بالفرحة والحياة .. فى غير كلل أو ملال يقذفون بالكرات، يعدو الأول خلف الآخر فـــى سباق، يجرون وراء الخيال، راحت العدسات، عدســـات الآباء والأمهات تلاحقهم وهم يروحون ويجيئون، فتترى اللقطات مفعمة بالفرح الطفولى البهيج.

على جانب آخر كان "صابر" و "فدوى" و "شفيق" فى عطلة شبه دائمة خلف حدود غير فاصلة، وأســـلاك

شائكة، وأرض ملغمة، وطرقات مغلقة ؛ كانوا يرفلـــون في رخيص الثياب، جيوبهم كبطونهم شـــبه خاويـــة لا يعرفون المروج أو الملاهي المبهرة ؛ لم يتذوقوا يومـــاً صنوف الأطعمة الفاخرة، شربوا العلقم والحرمان والقيد والرباط المقيم .. كأنما أرضهم تتـــأبى علـــى رفاهيـــة الوديان السهول، الفضاء محاصر بالحوامات الراجمات، والأرض مكســوة بالعربـــات المدرعـــة والمجـــنزرة والدوريات المتأهبة .. لا عطلة عندهم، فكل أيام "الجمع" كبقية أيام الأسبوع!! يتجرعون الحصار وسموم البـارود وعذابات الاختناق .. يجرون داخل وحول المخيمات في غير لعب، يسنون الحجر، شـــاخت قلوبـــهم .. راحـــوا يلاحقون فوهات أسلحة الصياد بالحجر، مـــن فخاخـــهم يقذفون الحجر، فيتقافزون ويسقطون في أســـى .. يـــا للخزي من تكرار بيانات الشجب! .. عدســـات التلفـــزة اللاهية تستعذب ملاحقتهم وهم يقذفـــون ويتقـــافزون .. وحين يسقطون تترى لقطاتـــهم تكشـــف عـــن وابـــل الرصاص في سيقانهم وصدورهم، وأحياناً كثيرة حيـــن

يدق الرصاص عظام جماجمـــهم الغضـــة، فــيرقصون كالداجن المذبوح رقصات الموت و .. ولا يزالـــون .. وما يزال صابر وفدوى وشـــفيق ونظرائـــهم يقذفــون ويتقافزون كقطيع من غزال يبحث عن مرح برئ بيـــن أحضان دافئة.

* * *

أصابع متوحشة

□□ كنت أجلس بمفردى مع كوب الشاى فى شرفة بيت أخى الأكبر، بيت العائلة القديم، المكان له سحره وذكرياته، أمتع ما فى المكان أنه يجمع الأرحام أثناء العطلات والمناسبات، كانت الشرفة تطل على فضاء واسع هو درة الحى بأكمله ؛ الصورة البارزة فى

الفضاء من أمامى ملامحها تعكس من عبق الماضى المسجد الجامع وصهريج المياه العذبة ؛ ومن الحاضر محولات الكهربا وبعض المحال التجارية، تأملت دبيب الكائنات ؛ وبينما عدسات نظارتى تطوف بأبعاد المكان، لفتت انتباهى إحداهن، ... حدقت طويلاً، بدت جلية لى .. هى هى ؛ أتذكرها الآن منذ غادرت القرية لأقيم فى المدينة .. أطلت النظر إليها وهى ترفع بيدها اليمنى وعاء الماء النقى ثم تعود أدراجها واثقة الخطوات.

تملكتنى على غير المألوف رعشة الكتابة الفورية، غادرت الشرفة للطابق الأعلى، أمسكت بالقلم وأوراقي استعيد شيئاً من ذكرياتى، من مستودع الطفولة الثر، رحت أتذكر وأسطر : .. لم أنس ملف سن العاشرة، العمر الأجمل من حياتى، الخيال المنطلق والأحلام غير المحدودة، وشقاوة لا حدود لها، فى تلك السن كنت زميلاً لمن يكبرنى بعامين أو ضعفهما، كنت أتخطى الصفوف الدراسية، وانجح فيزيد البون الزمنى

والعقلي بيني وبينهم، وصل أغلــب هــؤلاء الزمــلاء وقتذاك إلى سن البلوغ، كنت فضولياً اســتعذب لــذة الاكتشاف، تمنيت الوصول إلى سن البلــوغ، ظننــت بلوغ شأنه يعني الفتوة والرجولة .. وجدت ضالتي فــي البالغين من فريق الكرة الذي كنت قــائده الطبيعــي، أمدني أعضاء الفريق بالعجيب والغريــب عــن تلكــم المرحلة، لكن فضولي -وقتذاك- ظل يبحث عن إجابــة سؤالي المُؤرق :

ماذا يحدث بين عروسين في ليلة زفافهما ؟..

أربعون عاماً خلت، ولا تزال في مخيلتي شقاوة الأطفال، أتذكر الآن غير مرة شهدت فيها مع أصحابي مواكب أعراس كثر، الحصاد الماثل متعــة الإيقــاع بالأهازيج وركــض الخيــول ومباريــات الزغــاريد المتناغمة مع دقات الطبول والدفوف والمزامير، وكــم تذوقنا ولائم الأعراس الطيبة، كنا نعود أحيانــاً بخفــي حنين .. وفي بعض الأعراس كنا نحــرص أن تطــال أيادينا الصغيرة رسوم وألوان من نقوش ليلة الحنــة ..

وبعد ذلكم الفرح البهيج الذى كان يغمرنا، كنت أتحلق وفريقى جزءاً من المكان، نتحدث عن مجهول لم تره حواسنا .. ماذا يحدث بين عروسين فى ليلة زفافهما ؟

شريط من الصور يتراءى لى .. صور حسناء الحى ؛ نجلاء النجلاوى، لقطات محفورة فى خيال سن العاشرة ؛ لا فرق بين الهيئة التى رأيتها اليوم حية عند مورد الماء، وبين هيئتها المحفورة فى الخيال .. كانت نموذجاً للأنثى، مع أنها متسربة من مبادئ التعليم ؛ ولأنوثتها الطاغية، تعلق بها شباب ورجال ؛ حتى الأطفال، وأنا منهم، فقد بهرنى في كل شئ .. عرفت من بعد أن شعر الشعراء يتضاءل فى وصف محاسنها والتغزل فيها كأنما يقصدها بشار بن برد فى قوله:

إذا نظرت صبت عليك صبابة
وكادت قلوب العاشقين تطير

بل طالها قول الحبيب بن أوس الطائى أيضاً:

أطاعها الحسن وأنصب الشباب على
قوامها وجرت فى وضعها النسب

استعيد الآن الصور المحفورة في خيالي من زمن بعيد ؛ خطوها المميز، ثوبها اللامع، جسمها الفاتن، كل شئ في قوامها كان يجذبك إليها .. أرداف سكرى، خصر نحيل، كواعب غوامض، وثدى كواعب، وشعر فاحم طويل يهفهف تحت غطاء الرأس الشفاف ؛ كان كل ذلك بؤرة اهتمام الشباب والبالغين، أما أنا فكنت أتابع الوجه الآخر في شخصية نجلاء النجلاوى، أتابع في شغف قوتها الأسطورية، فهي ترفع بيدها الواحدة زنة مائة كيلو جرام، وتقتلع بيدها الشجرة من جذورها، أنكر جيداً حضوري ذات يوم مع مجموعة أطفال التفوا مع أناس كثر عند الساقية يشهدونها وهي تُنقذ أحد العجول الذى سقط في بئر الساقية ؛ صفقنا طويلاً لها وهي ترد علينا في ابتسامة صافية : يا قوة الله القوى..

كما أتذكر الآن من صور الذكريات صورة قائمة، يوم أن رفض أباها زواجها من شباب أصحاء أقوياء كُثر، بعضهم ينتمي لعائلات كبيرة تجمع بين

المال والحسب والنسب، وبعضهم من ذوى الأجسام فى أسلحة الجيش المميزة، و .. تندر الناس يوم موافقته على شاب رقيق الحال، كان الفاتح الشرارى، ضعيف البنية قصير القامة، تستقر فى جوفه الأمراض المتوطنة ولا يملك إلا أطرافه الطويلة .. على عجل تم تحديد موعد العرس، فرح نجلاء النجلاوى والفاتح الشرارى ! . خرس التندر، وبدأت حرب التأويلات تلف القرية.

أتذكر الآن أيضاً أننى قررت وقتذاك أن أجد إجابة لسؤالى الطفولى المؤرق .. سؤال لا يجيب عنه الآباء أبداً .. فى ليلة الحنة لم أكن ككل الأطفال، قررت فى فضول وجرأة استثمار عرس نجلاء فى معرفة الجواب عن سؤالى المؤرق .. نجحت فى معرفة من سيكون فى غرفة نوم العروسين معها .. كن أربعة من نساء قويات البنية، قويات الشخصية أيضاً، من بينهن أم العروس، وإحداهن كانت جارة لنا ..

توسلت إليها أن تصحبنى معها إلى الغرفة .. لن أنسى صوتها كأنما يرن فى أذنى الآن، قالت من أربعين سنة:

- أطمئن .. سآخذك معى .. أقعد تحت السرير .. وعند خروج العريس أخرج معه ؛ لو بكيت سيطردوك..

لم أتذكر ردى عليها يومذاك، شُل تفكيرى ونمت أحلم وأحلم بتمثيل الاختباء.

أيضاً بين يدى الآن تفاصيل صورة حاشدة أتذكرها بدقائقها، فمع حلول المساء كانت أضواء الغاز تلف المكان، وعلى أنغام الطبل والمزمار والزغاريد، كانت ليلة العرس تقترب من نهايتها، الموكب يتحرك وسط حشد هائل من أهل العروسين والأقارب، تُطل نجلاء على الحشد من فتحة الهودج أعلا جمل يتهادى بها كفارسة فى فستانها الأبيض الناصع، بينما كان العريس فاتح الشرارى فوق جواد صغير الحجم كهيئة جسمه، يركب من خلفه فوق الجواد، لا فرق فى الهيئة بينه وبينهما إلا فى الذراع الطويلة الممدودة تقود

الجواد، طفلين من أقاربه، الموكب الحاشد يقترب مــن بيت العريس، أسرعت لحظتذاك لأمسك بيــد جــارتي وهى تتقدم أم العروس مع بقية النساء، إلى غرفة النوم وصلنا وتسللت فى خفة إلى تحت السرير ذى الأعمدة، واجهتنى مشكلة سخونة أوانى الطعام المكتظة حولى .. تكومت .. بعد ضجة دخل العريس يحمــل عروســه وخرج من فوره ليأتى بشــئ لا أعرفــه ؛ كــانت أم العروس تطلبه بالإشارة ..قلت فى نفســى لقــد أتــى بعروسه فقط ونسى حلاق الصحة خــارج الغرفــة .. كانت الأهازيج تملأ البيت والشارع فى غناء لا يقــال إلا فى تلك اللحظة:

علقة تفوت ولا بنت تموت ....

علقة تفوت ولا بنت تموت ....

يا الله، يا عريسنا بيَّض عرضنا

يا الله، يا عريسنا بيَّض عرضنا

في تلك اللحظات كـانت نجـلاء -أقـوى مـا عرفت- غارقة في بحر البكاء، بكاء ممزوج بالـهلع، قلت في نفسي سأخرج وأخطف موسى الحـلاق، لقـد آلمني في الطهور كما آلم كثر عند الختـان .. آه مـن قوى ينتحب، بدأت النساء تقيد حركة العروس، أمسكن بنجلاء من أعلا فخديها إلى أسفل ساقيها، بين الفخذيـن المرتعشين ظهرت كوة مغطاة باللون الأبيض النـاصع، دخلت قريبات العريس، تهيأ الفاتح الشراري لفروسـية الليلة ؟ لم أسمع صوت حلاق الصحة إذ تعرفه القريـة جميعها، البكاء يزداد، والقيـود ضاغطـة ومحكمـة، والكوة بين الفخذين تتسع ويتسع معها حجـم الغطـاء الأبيض من الفستان الناصع، العريس يتصبـب عرقـاً ويهاب الموقف بأكمله ؛ نهرته بنات العم مع صـوت النسوة يحثوه ليفعل:

يا الله، يا عريسنا بيَّض عرضنا

يا الله، يا عريسنا بيَّض عرضنا

مرت الدقـــائق كســنوات، الخــوف والبكـــاء، والأحجام، والطرق، وأصوات الطبول تستحث الجميع، ولا مُجيب، أرتعدت نجلاء أكثر؛ تصبب عرق الفـــاتح أكثر وأكثر .. حوصرت تبولت فى سروالي .. وأخيراً طلب العريس إطفاء الأنوار .. ولم أر شيئاً بعد ذلـــك، بل سمعت صرخة هزت الحى بأكمله، خرج العريــس ومن خلفه بنات أعمامه يتحسسن عند أطراف أصابعــه "المَحْرَمة"(*) البيضاء المبقعة بالأحمر، اختلط الأحمـــر بالأبيض، تعالت الزغاريد والأغانى خارج الغرفة، فــى وقت خرجت مع الأم النساء يصرخــون فـــى عويــل ونحيب وأنا من خلفهن، تركنا جميعاً نجلاء النجــلاوى وسط بركة من سائل أحمر غال .. لم تمــض نصــف

(*) عود خشبي مدبب تلف مقدمته بالشاش المدمم المنقول لفـــوره مـــن أصابع العريس، ويتبادله أهل العروس في رقصة دائرية مع جمـــوع العرس، والمحرمة اسم شعبي غير دال كبعض الأمثال الشعبية، فــلا دلالة على الحلال أو الحرام، وإنما عادة شعبية مكروهة تنقضي.

الساعة إلا وأبواق عربة الاسعاف تعلن عن نقلها إلى المستشفى المدينة ؛ كانت نجلاء تنزف نزيفاً حاداً ؛ توقفت مواكب الفرح هنا وهناك .. فتحولت أكف ترجيع الغناء إلى ضراعة من دعاء .. لملمت أوراقي المحفورة في خيال لن يغيب، بينما كان صوت أخي الأكبر يدعوني لمائدة الطعام .



صدر للمؤلف(*)

أولاً : كتب في الأدب العربي ونقده:

- قراءة في الأدب الحديث ط١ دار الشرق . د.ت (نفد).
- قراءة في الأدب الحديث ط٢ دار الوفاء – الاسكندرية ١٩٩٨ ، (نفد).
- محمد حسين هيكل ط١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ ، (نفد).
- د. محمد حسين هيكل ط٢ دار الوفاء – الاسكندرية ١٩٩٨ ، (نفد).
- دراسات نقدية في الأدب المعاصر ، ط١ دار المعارف ، القاهرة ١٩٩١ (نفد).
- دراسات نقدية في الأدب المعاصر ، ط٢ دار الوفاء ، الأسكندرية ١٩٩٧ (نفد).
- دراسات نقدية في الأدب المعاصر ، ط٣ دار الوفاء ، الأسكندرية ١٩٩٨.

(*) د. أحمد زلط، أديب وأكاديمي مصري، عضو اتحاد الكُتَّاب ورابطة الأدب العالمية، أحد خبراء أدب الطفل العربي وثقافته.

●في جماليات النص ، ط١ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٤ . (نفد).
● في جماليات النص ، ط٢ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨.
●مدخل إلى علوم المسرح ، ط١ ، دار الوفاء ، الإسكندرية ، ١٩٩٨.
●من روائع قصص الخيال الشرقى ، دار الوفاء ، الإسكندرية ١٩٩٧.
●رواد أدب الطفل العربى ، ط١ ، دار الأرقم د.ت (نفد).
●أدب الطفولة أصوله .. مفاهيمه ط١ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠م.
● أدب الطفولة أصوله .. مفاهيمه ط١ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٠م.
● أدب الطفولة أصوله .. مفاهيمه ط٢ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٢م.
● أدب الطفولة أصوله .. مفاهيمه ط٣ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٥م.

- أدب الطفولة أصوله .. مفاهيمه ط٤ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٧م.
- ديوان السنهوتى للأطفال ، ط١ ، دار الشرق مطبعة الفارس العربى ١٩٩٤م (نفد)
- الطفولة والأمية ، سلسلة أقرأ ،ط١،دار المعارف ١٩٩٣م.
- أدب الأطفال بين أحمد شوقى وعثمان جلال،ط١، دار الجامعات المصرية ١٩٩٦
- أدب الطفولة بين كامل كيلانى ومحمد الهراوى،ط١،دار المعارف ١٩٩٦م(نفد)
- الخطاب الأدبى والطفولة،ط١، الهيئة العامة للثقافة وزارة الثقافة مصر ١٩٩٧م (نفد).
- الطفل مبدعاً ، ط١ ، دار الوفاء الأسكندرية ، ١٩٩٩ . (نفد).
- أدب الطفل العربى دراسة معاصرة فى التأصيل والتحليل، ط١ ، هبة النيل للنشر والتوزيع ١٩٩٩م.
- أدب الطفل العربى دراسة معاصرة فى التأصيل والتحليل ، ط٢ ، دار الوفاء الإسكندرية ١٩٩٩م.

- أدب الطفل وثقافة وبحوثه في جامعة الإمام محمد بن سعود ، ط١ ، (بالاشتراك) الرياض ، ١٤١٨هـ.
- مدخل إلى أدب الطفولة ، ط١ ، نشر إدارة جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ١٤٢١هـ.

ثانياً : كتب فى الإبداع القصصى :

قصص قصيرة:

- وجوه وأحلام ، ط١ ، سلسلة أصوات معاصرة ، القاهرة ١٩٨٢م.
- وجوه وأحلام ، ط٢ ، على نفقة المؤلف، (نفد).
- المستحيل ، ط١ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٧م.
- عفاريت سراى الباشا ، ط١ ، العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٩م.
- بخيل فى المدينة ، ط١ (قيد) النشر دار هبة النيل القاهرة ٢٠٠٠م.
- كتب أخرى قيد الطبع:

- معجم الطفولة ، ط١ ، الرياض ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- تراجم مصرية وعربية ، ط١ ، القاهرة ٢٠٠١م.
- القصص الترويحى عند كامل كيلانى.
- فى الشعر العربى المسرحى.
- فى نظرية الأدب.

* * *

الفهرس

رقم الإيداع
٢٠٠١ / ٩٣٦١
I. S. B. N.
977/ 301/ 097/ X